الفصل السادس

مرتكزات الصحوة الإسلامية عند إقبال

obeikandl.com

obeikandl.com

مرتكزات الصحوة الإسلامية عند إقبال

أولاً: الدعوة إلى تجديد التفكير الديني في الإسلام:

أ – مفهوم التجديد لدى إقبال:

لقد كان الإسلام في سيره الطويل، عرضة لتحريف الغالين وتأويل الجاهلين، ودخلت فيه البدع والأفكار المنحرفة، وتسرب إليه الشرك والجاهلية عن طريق الأمم التي كانت تسلم، وعن طريق التقليد والجهل، فكان من توفيق الله أن يسر للأمة الإسلامية في كل عهد رجالاً فضحوا المحرفين والمتآمرين، وأنكروا البدع والضلالات، ودافعوا عن السنة، وردوا العقائد الباطلة، ونفخوا في الإسلام روحاً جديدة، وأيقظوا في المسلمين ثقة جديدة. وقد كان هؤلاء الأفراد، نوابغ عصورهم، عقلية وعلماً وأخلاقاً، وكانوا أصحاب شخصية جذابة، وكانت عندهم لكل فتنة وظلمة يد بيضاء تبدد الظلمات وتنير السبيل.[١]

والأديان بحاجة إلى الرجال الأحياء – كما يقول أبو الحسن الندوي – لأنها لا تعيش ولا تزدهر ولا تعود إلى نشاطها وشبابها بعد ضعفها واضمحلالها، ولا تنسجم مع المجتمع المعاصر، ولا تتلاءم مع روح العصر إلا عن طريق الرجال النوابغ الذين يظهرون حيناً بعد حين، يملكون الإيمان القوي الجديد، وسموا روحياً لا يشاركهم فيه عامة الناس، ونزاهة ممتازة عن الأغراض، وعزوفاً عن الشهوات، وتفانياً في المبادئ والعقائد، ومستوى عقلياً وعلمياً أرقى من الكثير...[٢]

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام لأبي الحسن الندوي، ص ١٧ – ١٨ بتصرف. (وهي محاضرات ألقيت في جامعة دمشق في الستينات من القرن الماضي)

(٢) المرجع السابق.

ومن هـؤلاء الرجال الأفـذاذ الذين جـددوا الفكر الإسـلامي، وأثاروا الحماس في نفوس المسـلمين لإعادة مجد الإسـلام ثانية، الشـاعر والمفكر العظيـم محمد إقبال الذي كرس فكـره وقلمه لإعادة بناء الفكر الديني في الإسـلام، ولم يقصـد بالتجديد، تجديد الإسلام، لأن الإسلام دين كامل، مصدره القرآن والسنة، ولا يقبلان تغييراً لحكم من أحكامه.

يقول الدكتور محمد البهي: «لقد كان إقبال دقيقاً عندما عبر عن حركته الفكريـة أو محاولته الإصـلاحية بإعادة التفكير الديني في الإسـلام، دون التعبير بالإصـلاح الديني، لأن أي محاولة للتجديد أو الإصـلاح الديني في نطاق الإسلام، لا يمكن أن تحمل على معنى الإصلاح أو التجديد بدلالتهما الحقيقية. إن التجديد هنا أو الإصـلاح إنما ينصـرفان للفكر الإسـلامي نفسـه، فيمـا يأخذ به مـن مفاهيم، وما يحـاول أن يوجده مـن توافق بين التطور الحضاري وبين المبادئ الإسلامية الثابتة.[١]

ويوضـح إقبـال ذلك فيقـول: «ولقد حاولـت في هذه المحاضـرات بناء الفلسـفة الدينية الإسـلامية بناء جديـداً، آخذاً بعين الاعتبـار المأثور من فلسـفة الإسـلام إلى جانـب ما جرى علـى المعرفة الإنسـانية من تطور في نواحيها المختلفة».[٢]

وإقبال باعتباره إنسـاناً لا يدعي لنفسـه صـحة آرائه وأفكاره، بشكل مطلـق، وإن تقـدم المعرفـة، قـد ينتـج أفـكاراً أكثر صـحة مـن أفكاره مستقبلاً.

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي لمحمد البهي – ص ٣٦٧.

(٢) انظر: محمد إقبال مفكراً إسلامياً ص ١٤٤، وتجديد التفكير الديني في الإسلام لمحمد إقبال – ص ٢.

يقول إقبال: «على أنه ينبغي ألا يغيب عن أذهاننا أن التفكير الفلسفي ليس له حد يقف عنده فكلما تقدمت المعرفة فتحت مسالك للفكرة جديدة، وقد تكون أصح منها، وعلى هذا فواجبنا يقضي أن نرقب في يقظة وعناية تقدم الفكر الإنساني، وأن نقف منه موقف النقد والتمحيص».[١]

ب – دوافع إقبال وأهدافه إلى تجديد التفكير الديني في الإسلام:

رأينا آنفاً كيف أن إقبالاً نظر إلى واقع المسلمين في الهند خاصة وفي العالم عامة، فوجد الأمراض تكتنفه من جميع الجهات:

- وجد فساداً في العقيدة، إذ تحول التوحيد في الإسلام إلى عبادة للأوثان، مثل تقديس الأولياء، والأضرحة، وانتشار الشعوذة والسحر.
- ووجد فساداً في السلوك، وتغييراً في معاني القيم الإسلامية، فانقلب التوكل إلى تواكل، والجهاد والعمل إلى استسلام للأقدار، فسهل على المستبدين قيادهم كالقطيع من الأغنام.
- ووجد الجهل بأمور الحياة وأساليبها الناجحة، في رفع المستوى الاجتماعي والاقتصادي.
- ورأى شباب المسلمين قد انخدعوا بمظاهر المدنية الغربية البراقة فهم يهتمون بمظهرهم وزينتهم، ويهملون قلوبهم وروحهم.
- ومما زاد هذه الأمراض.. وجود الاستعمار الغربي الغاشم وسيطرته على البلاد العربية والإسلامية.

هذه هي صورة من واقع المسلمين كما رآها إقبال، وتحرق ألماً لها، وجاهد طول حياته لتحسين هذه الصورة، وعلاج أمراض المسلمين، ورأى

(١) المرجع السابق – ص ٣.

obeikandl.com

أن من أسس العلاج؛ تجديد التفكير الديني على ضوء معطيات المعرفة الحديثة ولكن، لماذا يكون التجديد للتفكير الديني هو الطريق للإصلاح؟!

نجد جواب هذا السؤال لدى إقبال إذ يقول: «ظل التفكير الديني في الإسلام راكداً خلال القرون الخمسة الأخيرة، وقد أتى على التفكير الأوربي زمن تلقى فيه وحي النهضة عن العالم الإسلامي، ومع هذا فإن أبرز ظاهرة في التاريخ الحديث هي السرعة الكبيرة التي ينزع بها المسلمون في حياتهم الروحية نحو الغرب، ولا غبار على هذا المنزع، فإن الثقافة الأوروبية في جانبها العقلي ليست إلا ازدهاراً لبعض الجوانب المهمة في ثقافة الإسلام، وكل الذي نخشاه هو أن المظهر الخارجي البراق للثقافة الأوروبية قد يشلّ فنعجز عن بلوغ كنهها وحقيقتها، وكانت أوروبا خلال جميع القرون التي أصبنا فيها بجمود الحركة الفكرية تدأب في بحث المشكلات الكبرى التي عُني بها فلاسفة الإسلام وعلماؤه عناية عظمى، ومنذ العصور الوسطى وعندما كانت مدارس المتكلمين في الإسلام قد اكتملت، حدث تقدم لا حد له في مجال الفكر والتجربة. وكان من نتائج امتداد سلطان الإنسان على الطبيعة أن بعث فيه ذلك إيماناً وإحساساً جديدين بتفوقه على القوى التي تتألف منها بيئته، فظهرت وجهات نظر جديدة، وحررت مرة ثانية المشكلات القديمة في ضوء التجربة الحديثة، وظهرت مشكلات من نوع جديد، ويبدو أن عقل الإنسان أخذ يشب عن طوق ما يحيط به من زمان ومكان وعِلّية، وهي أخص مقولاته[١] الجوهرية، إن تصورنا للعقل نفسه بسبيل التغير نتيجة التفكير العلمي».[٢]

(١) المقولات: هي أعلى أنواع النسب التي تقال على أنحاء الوجود مثل: الجوهر والكم والكيف والإضافة والمكان والزمان والوضع والملك والعقل والانفعال. (انظر أرسطو لعبد الرحمن بدوي – ص ٨٨).

(٢) تجديد التفكير الديني في الإسلام لمحمد إقبال – ص ١٣ – ١٤.

obeikandl.com

إن جمود التفكير الديني في الإسلام، وتقدم التفكير الغربي في القرن الأخير، ونزوع المسلمين إلى تقليد الغرب في قشور مدنيته لا روحها هو الدافع لإقبال لتجديد التفكير الديني، وإعادة النظر فيه، وبنائه من جديد؛ وإلا ترك المسلمون دينهم، ولحقوا بالغرب في تفكيرهم وحياتهم الاجتماعية والدينية، وهذا التجديد في ضوء نتائج الفكر الغربي ضرورة ملحة للصحوة الإسلامية الحاضرة، يقول إقبال:

«فلا عجب إذاً أن نجد شباب المسلمين في آسيا وأفريقية يتطلبون توجيهاً جديداً بعقيدتهم. ولهذا لابد من أن يصاحب يقظة الإسلام تمحيص بروح مستقلة لنتائج الفكر الأوروبي، وكشف المدى الذي تستطيع به النتائج التي وصلت إليها أوروبا أن تعيننا في إعادة النظر في التفكير الديني في الإسلام، وعلى بنائه من جديد إن لزم الأمر».[١]

وهناك واقع آخر دفع بإقبال لتجديد التفكير الديني، وهو الدعوات العلمانية اللادينية من أولئك الذين ينادون بالتحرر من الدين عامة والإسلام خاصة، الذي يَدَّعون أنه يعيق حركة التقدم، وكانوا سنداً قوياً لأتاتورك[٢] وغيره من الحكام، الذين خدعوا بمظاهر المدنية الغربية ولم يستفيدوا من لبابها. فلابد من الرد على هذه الدعوات وتبيان أن الإسلام هو أصل الحضارة والتقدم والحرية...

يقول إقبال: «أضف إلى هذا أنه لا سبيل إلى تجاهل الدعوة القائمة

---

(١) المرجع السابق – ص ١٤.

(٢) أتاتورك: مصطفى كمال (١٨٨١م – ١٩٣٨م) قضى على الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م، وغير الكتابة التركية من الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني، وذكر المؤرخون أنه من يهود (الدونمة) الذين أظهروا الإسلام في سالونيك.

obeikandl.com

في أواسط آسيا ضد الدين على وجه عام، وضد الإسلام على وجه خاص، تلك الدعوة التي عبرت حدود الهند بالفعل، وبعض دعاة هذه الدعوة من أبناء المسلمين، وأحدهم هو الشاعر التركي توفيق فكرت.(١)

وقد ذهب إلى تحقيق أغراض حركته إلى حد أنه استخدم في ذلك قصائد شاعرنا المفكر العظيم ميرزا عبد القادر بيدل الأكبر آبادي.(٢) حقاً لقد آن الأوان للنظر في مبادئ الإسلام وأصوله، وحتى تتضح صورة التجديد الذي يريده إقبال، وأنه لا يريد به مبادئ الإسلام وعقائده، وإنما هدفه فهم الإسلام فهماً صحيحاً وسليماً. ونورد قوله في مستهل محاضراته التي كان الهدف من إلقائها تجديد التفكير الديني، فهو يقول:

« وإني لأعتزم في هذه المحاضرات أن أناقش مناقشة فلسفية بعض الأفكار الأساسية في الإسلام على أمل أن يتيح لنا ذلك، على أقل تقدير، فهم معنى الإسلام فهماً صحيحاً بوصفه رسالة للإنسانية كافة».(٣)

ج – صياغة جديدة للعقيدة الإسلامية(٤):

يؤكد إقبال، بداية أن الإيمان أكثر من مجرد الشعور، فهو في حقيقته يشبه رضا النفس عن علم ومعرفة، وأن الفكر عنصر جوهري من عناصره، وأن الدين نظراً لوظيفته التي هي تكييف الإنسان وهدايته في تدبير نفسه، وفي صلاته بغيره أشد حاجة إلى أساس عقلي لمبادئه الأساسية.

---

(١) توفيق فكرت: (١٨٦٧م – ١٩١٥م) شاعر تركي جدد الأدب التركي الحديث.

(٢) ميرزا عبد القادر بيدل الأكبر آبادي: شاعر هندي ولد في أكبر آباد (اليوم تسمى أكرا) في سنة ١٠٤٥هـ.

(٣) تجديد التفكير الديني في الإسلام (مرجع سابق) – ص ١٥.

(٤) المرجع السابق.

obeikandi.com

ويدلل إقبال على أن التماس الأسس العقلية للإسلام بدأ بالرسول ﷺ، فقد كان يدعو ربه فيقول: «اللهم اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك».[١] والقرآن الكريم يدعو دائماً إلى النظر في الكون والحياة والإنسان، ويعيب على الذين لا يعقلون ولا يتفكرون ولا ينظرون، وقد وردت كلمة (العقل بصيغة الفعل عقلوه، تعقلون، تعقل، يعقلها، يعقلون) خمسين مرة في القرآن الكريم[٢]، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

قال تعالى: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (آل عمران).

وقال تعالى: ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ (البقرة:٧٥).

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ (الملك).

وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (العنكبوت).

وقال تعالى: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (النحل).

ووردت كلمة النظر في الكون والحياة الموصل إلى الإيمان أكثر من مئة مرة في القرآن الكريم، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر أيضاً:

---

(١) صحيح مسلم – صلاة المسافرين – باب الدعاء في صلاة الليل.

(٢) لبيان مكانة العقل في الإسلام انظر كتاب (الدراسات النفسية عند الإمام ابن تيمية -١- العقل – د. فهمي النجار – الرياض – ١٤٢٥هـ (٢٠٠٤م).

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الأعراف :١٨٥).

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (يوسف: ١٠٩).

وقال تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ (المائدة:٧٥).

إن تعاليم القرآن الكريم تعد السمع والبصر والفؤاد التي هي وسائل النظر العقلي أجل نعم الله على عباده، وسوف يسأل عنها الإنسان يوم القيامة عما فعل بها، وفي أي أمر استخدمها.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (الإسراء).

د – مصادر المعرفة لدى إقبال:

(١) الكون هو المصدر الأول للمعرفة:

وإقبال بعد استعراضه الآيات الآنفة الدالة على النظر في الكون والإنسان والحياة استوحى منها طبيعة المعرفة ومنهجها في الإسلام، واستنتج ما يأتي[١]:

* أن القرآن يعد الكون مجالاً للنظر والتفكير، وأنه خاضع لنظام ثابت، وأنه لم يخلق عبثاً، وأنه حقيقة يجب أن توضع موضع الاعتبار، وأنه تطور وإبداع وخلق مستمر.

---

(١) محمد إقبال مفكراً إسلامياً، لمحمد الكتاني – ص ٤٩. وانظر أيضاً: تجديد التفكير الديني في الإسلام لإقبال – ص ١٩.

obeikandi.com

* أن طبيعة الإنسان إزاء هذا الكون طبيعة إيجابية، فالإنسان كائن قلق تواق إلى المعرفة، يحمل على عاتقه أمانة عظمى، وسيبلغ من الحقيقة مبلغاً مقدراً له في النهاية.

ثم يقول إقبال: إن وجود الإنسان وتقدمه الروحي يتوقفان على إحكام العلاقات بينه وبين الحقيقة التي يواجهها، هذه العلاقات تنشئها المعرفة وهي الإدراك الحسي الذي يكمله الإدراك العقلي.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (البقرة).

هذه الآيات تشير إلى أن الإنسان موهوب بالملكة التي تجعل له القدرة على وضع أسماء للأشياء، أي أنه يكوّن تصورات لها، وتكوين هذه التصورات معناه إدراكها وفهمها، فالمعرفة الإنسانية إذاً معرفة قائمة على الإدراكية، وبفضل هذه المعرفة الإدراكية يدرك الإنسان ما هو قابل للملاحظة من الحقيقة، والأمر الجدير بالتنويه في القرآن هو توكيده لجانب الملاحظة هذا من جوانب الحقيقة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (آل عمران).

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا ﴾ (الأنعام:٩٧).

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (الأنعام:٩٨).

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ (الفرقان:٤٥).

ولا شك في أن أول ما يستهدفه القرآن من هذه الملاحظة التأملية للطبيعة هو أنها تبعث في نفس الإنسان الشعور بمن تعد هذه الطبيعة آية عليه. ولكن مما ينبغي الالتفات إليه هو الاتجاه التجريبي العام للقرآن مما كون في أتباعه شعوراً بتقدير الواقع، وجعل منهم آخر الأمر واضعي أساس العلم الحديث. وإنه لأمر عظيم حقاً أن يوقظ القرآن تلك الروح التجريبية في عصر كان يرفض عالم المرئيات بوصفه قليل الغناء في بحث الإنسان عن الخالق.[١]

وهكذا نجد إقبالاً يصوغ منهج المعرفة في الإسلام كما استنبطه من القرآن الكريم، وأنه يقوم على الملاحظة والتجربة اللتين هما أساسا العلم الحديث.

وإن وسائل الوصول إلى المعرفة في هذا المنهج هو الاستقراء الذي ينتقل من الواقع – لا من مقدمات صورية كما هو في المنطق الصوري الأرسطي – للوصول إلى القوانين.

❖ إقبال ينقد علماء الكلام:

وإقبال ينقد المتكلمين الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية التي غشيت على أبصارهم في فهم القرآن الكريم.[٢]

---

(١) تجديد التفكير الديني في الإسلام (مرجع سابق) – ص ٢١.

(٢) المرجع السابق – ص ٨.

obeikandi.com

وقد بهرهم النظر الفلسفي فقرؤوا القرآن على ضوء الفكر اليوناني الفلسفي، ومضى عليهم أكثر من قرنين من الزمان قبل أن يتبين لهم في وضوح غير كاف أن روح القرآن تتعارض في جوهرها مع تعاليم الفلسفة القديمة.

فسقراط الفيلسوف اليوناني[١] يقصر همه على عالم الإنسان وحده، ويرى أن معرفة الإنسان معرفة حقة تكون بالنظر في الإنسان نفسه، لا بالتأمل في عالم النبات والهوام والنجوم، وما أشد مخالفة هذا لروح القرآن الذي يرى في النحل على ضآلة شأنه محلاً للوحي الإلهي، والذي يدعو القارئ إلى النظر في الكون والإنسان.

وأفلاطون قدح في الإدراك الحسي، لأن الحس في رأيه يفيد الظن ولا يفيد اليقين، ما أبعد هذا القول عن تعاليم القرآن الذي يعد السمع والبصر من وسائل الإدراك والمعرفة، والإنسان مسؤول عنهما يوم القيامة.

ويبين إقبال في ديوانه أسرار خودي (أي أسرار الذات) أن آراء أفلاطون اليوناني التي تدعو إلى ترك عالم الحس واليقظة إلى عالم الخيال، أثرت في تصوف المسلمين وآدابهم. ويحذر إقبال من آرائه لأنها تولد الخنوع واليأس، يقول إقبال:

راهبُ الماضين أفلاطُ الحكيمْ من فريقِ الضأنِ في الدهرِ القديمْ[٢]
فكرةٌ في غيرِ محسوسٍ فتَنْ صدَّ عن كفٍّ وعينٍ وأذُنْ

(١) سقراط: فيلسوف يوناني: يعد هو وتلميذاه أفلاطون وأرسطو أساس الثقافة اليونانية والغربية. (انظر تاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم).

(٢) فريق الضأن يذكرهم إقبال في قصيدة سابقة، بأنهم استطاعوا التغلب على الأسد الذي تسلط عليهم، بإقناعه بترك الجهاد، والابتعاد عن الحياة الدنيا، لأنها فناء.

obeikandl.com

قال: في الموتِ بدا سرُّ الحياةْ في خمودِ الشمعِ يزدادُ سناهْ
هو شاةٌ في لباسِ الآدميّ وَهْوَ في الصوفيِّ ذو بأسٍ قويّ[١]
هُلْكُ أقوامٍ بهذا الثَّمَلِ حُرِموا بالنومِ ذوقَ العملِ

وأرسطو الفيلسوف اليوناني تأثر بمنطقه الصوري الكثيرُ من فلاسفة المسلمين مثل ابن سينا والفارابي وابن رشد، وحتى الغزالي الذي ثار على الفلسفة اليونانية[٢]، تأثر كثيراً بالمنطق الأرسطي.

وعلماء الكلام من مفكري الأشعرية دافعوا عن رأي أهل السنة بأسلحة من المنطق اليوناني الأرسطي.

والمعتزلة[٣] أرجعوا الدين إلى نسق من المعاني المنطقية انتهى إلى موقف سلبي بحت[٤]، يقول إقبال: والنَظَّام[٥] فيما أظن كان أول من قرر أن الشك بداية لكل معرفة، ثم جاء الغزالي فأفاض في ذلك في كتابه (إحياء علوم الدين) ومهد السبيل لمنهج ديكارت.[٦] ولكن الغزالي ظل على الجملة

(١) ديوان الأسرار والرموز – (مرجع سابق) – ص ٣٠.

(٢) ألف الغزالي كتاب " تهافت الفلاسفة " للرد على الفلسفة اليونانية.

(٣) أصحاب واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري – وهناك آراء مختلفة في سبب هذه التسمية.

(٤) تجديد التفكير الديني في الإسلام – ص ١٠.

(٥) النظام: إبراهيم بن سيار النظام، رأس فرقة من المعتزلة، انفرد عنهم بعد مطالعته كتب الفلاسفة – بآراء معينة – انظر: الملل والنحل للشهرستاني جـ ١ – ص ٧٢، وكذلك: الفَرْقُ بين الفِرَقِ للبغدادي – ص ١١٣.

(٦) ديكارت (١٦٩٦م – ١٧٥٠م) فيلسوف فرنسي مشهور، له مذهب انتشر في أوروبا بأسرها، =

obeikandi.com

تلميذاً لأرسطو في المنطق، ووضع في كتابه القسطاس بعض حجج القرآن في أقيسة منطقية أرستطالية[١]، وفاته أن في سورة الشعراء قضية تقرر أن العقاب عاقبة المكذبين للأنبياء[٢]، وأن هذه القضية قامت على أساس من السرد البسيط لأمثلة من أخبار الأولين.

ولقد كان ابن تيمية هو الذي نهض إلى نقد المنطق اليوناني[٣] نقداً علمياً منظماً، فابن تيمية في كتابه (نقد المنطق) بيّن أن الاستقراء هو الطريقة الوحيدة الموصلة إلى اليقين.[٤]

❖ المنهج التجريبي من وضع المسلمين:

ويؤكد إقبال أن المنهج التجريبي القائل بأن الملاحظة والتجربة هما أساس العلم؛ أكدهما العلماء المسلمون لا الغربيون، وأن روجر بيكون[٥] الذي ينسب إليه المنهج التجريبي هذا، حصَّله من الجامعات الإسلامية

= وله منهج في البحث معروف يقوم على أساس الشك في كل شيء ما عدا وجود الفكر، وذلك للتمهيد إلى الحصول على اليقين. (انظر تفصيل مذهبه في: تاريخ الفلسفة الحديثة – ص ٥٦، ٨٤).

(١) انظر: مناهج البحث عند مفكري الإسلام لعلي سامي النشار – ص ١٣٥.

(٢) قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ (الشعراء: ١٣٩)، وقال تعالى ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ﴾ (الشعراء: ١٨٩).

(٣) ذكر السيوطي لابن تيمية كتابين في نقد المنطق، أحدهما صغير لم يتيسر له الاطلاع عليه، والآخر كبير واسمه: نصيحة لأهل الإيمان في الرد على منطق اليونان. لخصه السيوطي في كتابه: « صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام. " وطبع حديثاً كتاب لابن تيمية بعنوان: « كتاب الرد على المنطقيين ».

(٤) تجديد التفكير الديني في الإسلام (مرجع سابق) – ص ١٤٨.

(٥) روجر بيكون: (١٢٢٠م – ١٢٩٢م) عالم وفيلسوف إنجليزي عُني بعلم البصريات خاصة.

obeikandl.com

في الأندلس، وأن القسم الخامس من كتابه الذي خصصه للبحث في البصريات هو في حقيقة الأمر نسخة من كتاب (المناظر) لابن الهيثم[١]، وكتاب بيكون –في جملته – شاهد ناطق على تأثره بابن حزم.

ويعترف بهذه الحقيقة " برفولت " في كتابه (بناء الإنسانية) فيقول: «إن لخلفاء معلميه العرب في الأندلس، وليس لروجر بيكون ولا سميِّه[٢] الذي جاء بعده – الحقُّ في أن ينسب إليهم الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة، والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوروبية، وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر بيكون قد انتشر انتشاراً واسعاً، وانكب الناس في لهف على تحصيله في ربوع أوروبا».[٣]

ويقول برفولت أيضاً: «لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة على العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج، إن العبقرية التي ولدتها

---

(١) أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم: من أعلام العرب في الرياضة والطبيعيات، ولد نحو سنة ٣٥٤ هـ – ٩٦٥م، وتوفي بالقاهرة نحو عام ٤٣٠هـ – ١٠٣٩م، ذكر له ابن أبي أصيبعة في كتابه " عيون الأنباء " جـ ٢ – ص ٩٠ – ٩٨ ما يقرب من مئتي كتاب ورسالة في الرياضة والفلك والطبيعيات والفلسفة والطب، ومن أهم كتبه " المناظر " الذي ترجم إلى اللاتينية، ونشر سنة ١٥٧٢م. انظر: دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول – ص ٢٩٨.

(٢) وسميُّه هو فرنسيس بيكون (١٥٦١م ٠ ١٦٢٦م) فيلسوف إنجليزي، نقد أوهام العقل ووضع منهج الاستقراء. انظر تفصيل مذهبه في: تاريخ الفلسفة الحديثة ليوسف كرم – ص ٤٣– ٤٩.

(٣) تجديد التفكير الديني في الإسلام لإقبال (مرجع سابق) – ص ١٤٩.

obeikandl.com

ثقافة العرب في إسبانيا لم تنهض في عنفوانها إلا بعد مضي وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام، ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوروبا الحياة، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية».[١]

❖ **الحدس أو البداهة أو الإلهام:**

وينتقل إقبال إلى عالم آخر غير العالم المادي، وهو عالم الإيمان والغيب ليدرس منهج المعرفة فيه، وهل يقوم على التجربة كما هو الحال في العالم المادي الحسي؟

هنا نجد إقبالاً يبين أن العقل مهما علا قدره له حدود يقف عندها ولا يتعداها.. فهو لا يستطيع الحكم على الإيمان وعالم الغيب، لأن الدين كما يقول إقبال ليس أمراً جزئياً؛ ليس فكراً مجرداً فحسب، ولا شعوراً مجرداً، ولا عملاً مجرداً، بل هو تعبير عن الإنسان كله.

ويعد إقبال البداهة أو الحدس كما هي عند برغسون طريق المعرفة الدينية، وهي لا تتعارض مع العقل فهما يكملان بعضهما بعضاً؛ فالفكر يهدف إلى إدراك الحقيقة جزءاً جزءاً، والبداهة تدركها في جملتها، كلاهما يفتقر إلى الآخر لتجديد قواه.[٢]

والحدس أو البداهة تتم عن طريق إدراك يسميه إقبال إدراك القلب أو الفؤاد؛ يقول إقبال: «ولكي نكفل إدراك الحقيقة إدراكاً كاملا ينبغي أن يُكَمل الإدراك الحسي بإدراك آخر هو ما يصفه القرآن بإدراك الفؤاد أو القلب».

---

(١) المرجع السابق - ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٢) المرجع السابق – ص ٧ – ٢٣.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩ ﴾ (السجدة).

ولقد وصف بعضهم[١] إقبالاً بأنه وقع في تناقض أو تردد بين الإيمان والحدس الذي هو ثمرة البصيرة أو القلب؛ فهو تارة يعلن أن الفكر والحدس، أو العقل والقلب ليسا متناقضين بالضرورة، فهما يستمدان من أصل واحد، ويتكاملان في النهاية لأن أحدهما يدرك الحقيقة جزءاً جزءاً والآخر يدركها جملة واحدة، وأن كلاً منهما يفتقر إلى الآخر في تجديد قواه، ويلتمس الوصول إلى الحقيقة التي تتكشف للآخر، كل على طريقته، ونجده تارة وفي شعره خاصة يهوّن من شأن العقل ويرفع من شأن الحدس، وإن كان يتظاهر في أثر من موضع بأنه يؤمن بالعقل وبقدرته على مكاشفة الحقيقة.[٢]

ولو أمعنا النظر جيداً فيما نظمه إقبال شعراً، وما كتبه في محاضراته لم نجد أي تناقض حول هذا الموضوع.

فالعقل البشري مجاله العالم المادي، فهو يصل إلى الحقيقة المادية، لكنه يقصر عن إدراك الحقيقة الدينية، وقضايا الإيمان بالغيب، في هذه النقطة يهون إقبال من شأن العقل ويرفع من شأن الحدس أو البداهة في شعره، لأنه يصل بيننا وبين وجوه للحقيقة غير تلك الوجوه المتاحة لإدراك الحواس كما يقول جلال الدين الرومي.[٣]

---

(١) محمد الكتاني في كتابه " محمد إقبال مفكراً إسلامياً (مرجع سابق) – ص ٥١.

(٢) المرجع السابق – ص ٥١ وأيضاً تجديد التفكير الديني في الإسلام – ص ٢٣.

(٣) المرجع السابق – ص ٥.

obeikandl.com

الديـن وحده هو الذي يصـل إلى الحقيقة القصـوى؛ ويدلل إقبال على ذلك في أول محاضرة له (المعرفة والرياضة الدينية) فيطرح أسئلة فلسفية تتعلق بالكون وهي:

- ما طبيعة الكون؟
- ما بناؤه العام؟
- وهل هناك عنصر ثابت فيه؟
- وكيف تكون بالنسبة إليه؟
- وما نوع السلوك الذي يتفق مع هذا المركز؟

ويعلـن إقبـال بعد هذه الأسـئلة أن هذه المسـائل مشـتركة بـين الدين والفلسـفة والشـعر العـالي الرفيع، غير أن المعرفة المسـتفادة من هواتف الشعر شخصية بالضرورة في نوعها وفي طبيعتها، وهي مجازية مهمة غير محدودة.

والدين في أكمل صوره يسموفوق الشعر، فهويتخطى الفرد إلى الجماعة، وفي موقفـه مـن الحقيقة الكلية يتعارض مع عجز الإنسـان وقصـوره، أما الفلسـفة فوظيفتها تقصي فروض الفكر الإنساني، وقد تنتهي من بحثها هـذا إلى الإنـكار، أو الإقرار في صـراحة بعجز التفكـير العقلي في البحث عن اكتناه الحقيقة القصـوى[1]. أما جوهر الديـن فهو الإيمان، والإيمان كالطائر يعرف طريقه الخالي من المعالم غير مسترشد بالعقل.

وهكـذا يقرر إقبال أن الدين هو وحده الذي يصـل إلى معرفة الحقيقة

(١) المرجع السابق – ص ٥ – ٦.

obeikandl.com

القصـوى في الكون، ويبين عجز العقل وحده في هذا المجال وأن الإيمان في حقيقته ليس مجرد الشعور فقط، بل رضا النفس عن علم ومعرفة، وهو في حاجة إلى أساس عقلي لمبادئه الأساسية.(١)

ومن هنا سعى إقبال في تجديده للتفكير الديني إلى إيجاد أساس عقلي لمبادئ الإسلام الأساسية، لأن الدين لا يستغني عن السعي إلى التوفيق بين المتضـادات التي نجدها في عـالم التجربة، وعن تعليل يـبرر أحوال البيئة التي تجد الإنسانية نفسها محاطة بها.

ولعل محمد إقبـال يريد الإيمان في أكمل صوره، وإلا فالتدين باعتباره معتقداً ما لا يبحث عن فلسفة هذا المعتقد، فمتى استعان المرء في تحقيق صـحة المعتقـد بالتأمـل والتجربة لا يظـل المعتقد معتقداً بل يصـبح معرفة.

والمعتقد والمعرفة أمران نفسيان يختلفان كما قال (جوستاف لوبون) من حيث المصدر اختلافاً تاماً، فالمعتقد كناية عن إلهام لا شعوري ناشئ عن علل بعيدة عن إرادتنا، والمعرفة اقتباس شعوري عقلي قائم على الاختبار والتأمل.(٢)

❖ **المعرفة تبدأ بالمحسوس:**

ويرجع إقبال ليؤكد أن المعرفة عامة تبدأ بالمحسوس فيقول:

إن المعرفة يجب أن تبدأ بالمحسوس، وقدرة العقل على تحصيل المحسوس وسلطانه عليه هو الذي ييسر له الانتقال إلى غير المحسوس.

---

(١) تجديد التفكير الديني في الإسلام – ص ٦.

(٢) المرجع السابق حاشية – ص ٦ لعبد العزيز المراغي، راجع الكتاب.

obeikandl.com

قال تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الرحمن).

وهذا ما يؤكده القرآن للوصول إلى الإيمان بالله تعالى وبالغيب عامة،

يقول تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (فصلت).

ويقول تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الذاريات).

والآيات التي تحض على النظر في الكون والحياة والإنسان كلها تؤكد أن المعرفة تبدأ بالعقل والإدراك الحسي لتنتهي بالقلب والحدس. من هنا يؤكد إقبال قول برغسون: «البداهة ليست سوى ضربٍ عالٍ من التفكير».[1]

(٢) التجربة الدينية المصدر الثاني للمعرفة:

ويعطي إقبال للتجربة الدينية قيمة كبيرة لا تقل عن قيمة التجربة العلمية، وأنها خاضعة مثل غيرها للتمحيص والنقد.

ويلخص محمد الكتاني طبيعة المعرفة في الإسلام لدى إقبال بأنها: إدراك لنواميس الطبيعة قائم على الملاحظة والتجربة، ثم تجاوز للظواهر المادية إلى ما وراءها من نظام كوني شامل يدل على وجود الله. كما أن طبيعة المعرفة في الإسلام لا تقبل التجزئة بين غايتها المادية والروحية، فالمعرفة التي تكشف عن قوانين الطبيعة ولا تبعث في الإنسان الشعور بمن يعد هذه الطبيعة آية على وجوده وعلى وحدانيته، وعلى قدرته، معرفة ناقصة، كما أن المعرفة التي تتجاوز الظواهر الكونية وتغوص في الغيبيات

(١) المرجع السابق – ص ٧.

obeikandl.com

لاكتناه الحقيقة الكلية فقط مع تجاهل العالم المادي معرفة مجردة ومخفقة في نفس الوقت.[١]

❖ **الحقيقة الإلهية:**

أما وسائل المعرفة فهي العقل والقلب أي الفكر والحدس، لأنهما يتكاملان في النهاية، ويمكنان المسلم من إدراك الجزئيات على النسق التجريبي الملموس، كما يمكنان المسلم من التواصل على النظام الكلي الذي ينتظم تلك الجزئيات، فالحقيقة الإلهية تدرك في بعض مظاهرها تارة بالعقل، وتارة تدرك كلية بالحدس أو البصيرة. إن كل معرفة في الإسلام لا تنتهي إلى الإقرار بوجود الله معرفة جزئية ومخفقة ومضللة، ومن أجل أن يبني إقبال هذه المعرفة من جديد في نفس المسلم التي تجاذبته النزعات المادية، وضللته الفلسفات الإلحادية حاول أن يبني علم كلام جديداً يرتفع في صياغته العقلية إلى مستوى متطلبات الفكر الحديث، وفي ضوء هذه الغاية تناول من جديد إثبات وجود الله، وإثبات النبوة، وخلق آدم، والجنة والنار والحياة والموت، والقضاء والقدر... إلخ.

ذلك أنه لما كان جوهر الإسلام هو الإيمان بصدق رسالة محمد ﷺ وبصدق محتوى رسالته التي تضمنها القرآن كان صوغ هذه العقيدة صياغة فلسفية يقتضي أمرين:

أ – البرهنة على وجود الله متصفا بكل مقومات التوحيد الإسلامي.

ب- البرهنة على وجود صلة مباشرة بين الله وبين الإنسان الذي يتهيأ بطريقة ما لهذا التواصل عن طريق التجربة الدينية أو النبوة.[٢]

---

(١) محمد إقبال مفكراً إسلامياً (مرجع سابق) – ص ٥٤.

(٢) المرجع سابق – ص ٥٤ – ٥٥.

obeikandi.com

وإقبال في محاضرته الثالثة (الألوهية ومعنى الصلاة) يبين تصور الله تعالى في القرآن فيقول: إن أكبر عناصر هذا التصور، من وجهة فكرية خالصة، الخلق والعلم والقدرة والبقاء.. ومن أمثلة نظرات إقبال قوله: «إن تسمية الله تعالى نوراً في التوراة والإنجيل والقرآن، ينبغي أن تفسر تفسيراً آخر. فقد بين علم الطبيعة الحديث أن سرعة النور لا تمكن الزيادة عليها، وأنها لا تختلف باختلاف طرائق الراصدين، فالنور في العالم المتغير أقرب شيء إلى الوجود المطلق، فتسمية الله بالنور مجازاً ينبغي أن يفسر، في هدي العلم الحديث، بالإطلاق، لا بالحضور في كل مكان؛ هذا الوصف الذي يؤدي إلى عقيدة وحدة الوجود».[١]

ويقول إقبال في هذه المحاضرة كذلك:

«إن الحقيقة العليا ذات، ومن هذه الذات العليا تتجلى الذوات الأخرى بالخلق فحسب، والعالم في كل أجزائه، من الحركة الإلهية فيما نسميه الذرة المادية إلى حركة التفكير الإرادية في الإنسان ليس إلا تجلياً من الذات العليا، وكل ذرة ذات حركة إلهية هي ذات، مهما انحطت مكانتها في الوجود».[٢]

(٣) التاريخ هو المصدر الثالث للمعرفة:

ويبين إقبال المصدر الثالث للمعرفة الإنسانية وهو التاريخ بعد أن بين المصدر الأول للمعرفة وهو الكون (أو الطبيعة)، والمصدر الثاني هو التجربة الدينية وكلا المصدرين يدلان على وجود الله.

---

(١) تجديد التفكير الديني في الإسلام لإقبال – ص ٧٥، وكذلك: محمد إقبال.. سيرته وفلسفته وشعره لعزام - ص ١٦٠ – ١٦١.

(٢) المرجع السابق.

obeikandi.com

يقول إقبال: «والتاريخ أو بتعبير القرآن: أيام الله[١]، هو ثالث مصادر المعرفة الإنسانية بناء على ما جاء في القرآن، فمن أهم أصول التعاليم التي جاء بها القرآن أن الأمم تحاسب بمجموعها، وأن العذاب يعجل لها في الحياة الدنيا بما اكتسبت من سيئات، ولكي يؤكد القرآن هذا المعنى فإنه دائب الإشارة إلى الأمم الخالية، داعياً إلى الاعتبار بتجارب البشر في ماضيهم وفي حاضرهم.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾ (إبراهيم).

وقال أيضاً: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ (آل عمران).

وقال أيضاً: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (آل عمران:١٤٠).

وقال أيضاً: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ (الأعراف:١٣٤).

وهذه الآيات الأخيرة مثل من أمثلة الأحكام التاريخية العامة، يتجلى فيه التبيين والتحديد، وهي في صيغتها البالغة الإيجاز توحي بإمكان دراسة حياة الجماعات البشرية دراسة علمية باعتبارها كائنات عضوية، وعلى هذا؛ فمن يزعم أن القرآن يخلو من بذور المذاهب التاريخية يكون على ضلال مبين.[٢]

---

(١) يذكر القرآن " أيام الله " في موضوعين " سورة إبراهيم " آية: (٥)، وسورة الجاثية الآية (٤٥).

(٢) المرجع السابق - ص ١٦٠.

- فالقرآن وضع قاعدة من أعمق مبادئ النقد التاريخي، وهي التي تقرر أن أخلاق الراوي للأخبار عامل مهم في الحكم على روايته.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ (الحجرات:٦).

- ودعوة القرآن إلى تدبر تجارب الحياة، ووجوب التثبت من نصوص الأحاديث النبوية، والرغبة في تزويد الخلف بمصادر دائمة للإلهام كل هذه العوامل أسهمت في إيجاد مؤرخين من أمثال ابن إسحاق[١] ، والطبري [٢]، والمسعودي[٣] .

- وتعاليم القرآن بينت الأفكار الأساسية عن طبيعة الحياة والزمان، وترجع هذه الأفكار إلى فكرتين هما:

- الفكرة الأولى: تقرر وحدة الأصل الإنساني.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾ (الأنعام:٩٨)

- الفكرة الثانية: إدراك حقيقة الزمان إدراكاً دقيقاً، وتصور الوجود حركة مستمرة في الزمان، وهذه الفكرة هي أبرز ما نجده في نظر ابن

---

(١) ابن إسحاق: محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني ؛ من أقدم مؤرخي العرب من أهل المدينة له: السيرة النبوية رواها عنه ابن هشام. توفي سنة ١٥١هـ - ٧٦٨م.

(٢) الطبري ٢٢٤ – ٣١٠هـ: محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، المؤرخ المفسر الإمام، ولد في آمل طبرستان، واستوطن بغداد وتوفي بها، له: جامع البيان في تفسير القرآن، وأخبار الرسل والملوك.

(٣) المسعودي: علي بن الحسين بن علي، أبو الحسن المسعودي من ذرية عبد الله بن مسعود: مؤرخ رحالة بحاثة من أهل بغداد، أقام بمصر وتوفي فيها عام ٣٦٤هـ (٩٥٧م). من تصانيفه (مروج الذهب...)، ومؤلفات أخرى كثيرة.

obeikandl.com

خلدون[١] إلى التاريخ. مما يسوغ ما أضفاه عليه " فلنت " من مدح وثناء إذ يقول: «إن أفلاطون وأرسطو وأوجستين ليسوا نظراء لابن خلدون، كل من عداه غير جدير حتى بأن يذكر إلى جانبه».[٢]

ويعتز إقبال بالإنسان المسلم بأنه وحده الذي كان يمكن أن ينظر إلى التاريخ بوصفه حركة مستمرة في الزمان، حركة مبدعة صحيحة، وليست حركة قدرت خطواتها من قبل، وهذا ما أدركه ابن خلدون الذي عده إقبال سابقاً لبرغسون في الطريقة التي تصور بها الزمان.[٣]

ويؤكد إقبال على وجود مقدمات عقلية سبقت هذا التصور في تاريخ الثقافة الإسلامية، فنظرة القرآن في أن اختلاف الليل والنهار آية على الحق الذي هو كل يوم هو في شأن، ونزوع الفلسفة الإسلامية إلى اعتبار الزمان موضوعياً؛ أي أمراً موجوداً في الخارج، ونظر ابن مسكويه[٤] إلى الحياة بوصفها حركة تطورية، ووصول البيروني وصولاً لا شك فيه إلى مدخل لتصور الطبيعة حركة من الصيرورة؛ كل هذا كوّن التراث العقلي لابن خلدون، أما فضله الأكبر ففي دقة إدراكه لروح الحركة الثقافية التي كان هو من أنضج ثمارها، وفي عرضه لها على شكل مذهب منسق.[٥]

---

(١) ابن خلدون: (٧٣٢ - ٨٠٨هـ) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مؤرخ وفيلسوف، ويعتبر مؤسس فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع، وصاحب المقدمة المشهورة.

(٢) تجديد التفكير الديني في الإسلام لإقبال – ص ١٦٢.

(٣) المرجع السابق - ص ٦٣.

(٤) ابن مسكويه: أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب، توفي عام ٤٢١هـ، فيلسوف ومؤرخ وطبيب وكيميائي، له كتاب: تجارب الأمم وتهذيب الأخلاق وتطهير العراق. (انظر دائرة المعارف الإسلامية – ص ٢٧٧ – ٢٨٨).

(٥) تجديد التفكير الديني في الإسلام لإقبال – ص ١٦٣.

obeikandl.com

❖ ظاهرة النبوة:

وظاهـرة النبوة والوحـي الإلهي يبحثهـا إقبال، حينمـا يتكلم عن روح الثقافـة الإسـلامية. ويعد إقبال الوحي باعتباره الصـلة بـين الله والنبي، صـفة عامة من صـفات الوجـود، كما جاء في القـرآن وإن كانـت حقيقته وطبيعته تختلفان باختلاف مراحل التدرج والتطور في الوجود.

قـال تعـالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (النحل).

وقـال أيضـاً: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ (فصلت).

وقال أيضاً: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾ (الزلزلة).

وقال أيضاً: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ ﴾ (طه).

وفي طفولة البشرية تتطور القوى الروحانية إلى ما أسميه الوعي النبوي، وهو وسيلة للاقتصاد في التفكير الفردي والاختيار الشخصي وذلك بتزويد الناس بأحكام واختيارات وأساليب للعمل أعدت من قبل.

ويركز إقبال على فكرة ختم النبوة[1] باعتبارها إحدى الفكر الإسلامية العظيمة، فيقول: «والنبوة في الإسلام تبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة

---

(١) قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤٠).

إلى ختم النبوة نفسها، وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمداً إلى الأبد على مقود يقاد منه، وإن الإنسان يحصل كمال معرفته لنفسه ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو. إن إبطال الإسلام للرهبنة، ووراثة الملك، ومناشدة القرآن للعقل وللتجربة على الدوام، وإصراره على أن النظر في الكون والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الإنسانية، كل ذلك صورة مختلفة لفكرة ختم النبوة».[١]

❖ الإنسان، القدر، اليوم الآخر.

يستلهم إقبال تفكيره في الإنسان من القرآن الكريم، ويستشهد بالآيات للتدليل على شخصية الإنسان وفرديته.[٢]

- فالإنسان قد اصطفاه الله...

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (طه).

- والإنسان خليفة الله في الأرض...

قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ﴾ (البقرة: ٣٠).

- وإن الإنسان أمين على شخصية حرة أخذ تبعتها على عاتقه...

قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ ﴾ (الأحزاب).

---

(١) المرجع السابق – ص ١٤٣ – ١٤٥، وانظر: محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره لعزام– ص ١٦٣، ومحمد إقبال مفكراً إسلامياً (مرجع سابق) – ص ٧٢– ٧٣.

(٢) المرجع السابق – ص ١٠٩ – ١١٠.

obeikandl.com

ويبين إقبال كيف عمَّت المسلمين جبرية مشؤومة على خلاف ما علَّمه الإسلام وأكده من حرية الذات الإنسانية، فيقول:

«نشأت على خلاف دعوة أئمة المسلمين، جبرية مهلكة، وشاع نظرية الأمر الواقع لتحصيل منافع لبعض الناس وتيسير مطامعهم، وليس هذا المراء بدعاً؛ فقد احتج فلاسفة محدثون بحجج عقلية على أن نظام رأس المال في الجماعة نظام أبدي، حدث مثل هذا في تاريخ المسلمين،

ولكن درج المسلمون على التماس أدلة مذاهبهم في القرآن، ولو على خلاف معانيه الواضحة، فكان للتأويل الذي يحتج به على الجبرية آثار بالغة في الإضرار بالجماعة الإسلامية».[1]

ويفصل إقبال أخيراً رأيه حول ما جاء عن خلود الروح في القرآن مؤكداً نقاطاً ثلاثاً لا خلاف حولها وهي:

- أن الروح لها بداية في الزمان.
- وأن الرجوع إلى هذه الأرض غير ممكن.
- وأن النهاية أي انقضاء الأجل ليس بلاء، وأن المصير النهائي للإنسان لا يعني فقدان فرديته.

(١) محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره لعزام – ص ١٦٢ – ١٦٣، وكذلك تجديد التفكير الديني في الإسلام - ص ١٢٧.

obeikandl.com

ثانياً: بناء فلسفة جديدة للذاتية المسلمة

لبث إقبال سنين طويلة يفكر في أوضاع المسلمين وواقعهم المؤلم وأسباب ضعفهم، فراعه ما رأى، وجد بيئة فكرية تائهة في غيبوبة وإشراقات التصوف العجمي كما يسميه، وما يتبع ذلك من فناء للذاتية الإنسانية[١]، وسلبية للإنسان تعطله عن العمل وإعمار الأرض، وهو خليفة الله في أرضه.

يقول إقبال في مقدمته لديوان أسرار خودي (أسرار الذات) اختلطت في عقول الهنادك وقلوبهم النظريات والعمليات اختلاطاً عجيباً، ودقق حكماؤهم في حقيقة العمل وانتهوا إلى هذه النتيجة:

إن حياة " أنا " المسلسلة هي أصل المصائب والآلام، تنشأ من العمل، وإن حالة الإنسانية نتيجة محتومة لأعمالها. وكانت رسالة الإسلام في غربي آسيا دعوة بليغة إلى العمل. فالإسلام يرى " أنا " مخلوقاً ينال الخلود بالعمل، ولكن تشابهاً عجيباً في تاريخ الفكر الهندي والإسلامي، يظهر في بحث هذه المسألة. فالفكرة التي فسر بها " شنكر اجاريه " بعنوان « الجيتا كيتا»، هي الفكرة ذاتها التي فسر بها القرآن محيي الدين بن عربي الأندلسي، وكان له أثر بالغ في عقول المسلمين وقلوبهم، جعل ابن عربي بعلمه ومكانته، مسألة وحدة الوجود عنصراً في الفكر الإسلامي، واقتفى أثره أوحد الدين الكرماني[٢] وفخر الدين العراقي[٣] حتى اصطبغ بهذه الصفة كل شعراء العجم في القرن السادس الهجري.

---

(١) ارجع إلى خصائص التصور الإسلامي لسيد قطب – ص ٢٠.

(٢) أوحد الدين الكرماني: من تلاميذ ابن عربي، وتتجلى وحدة الوجود في شعره، وله منظومة اسمها (مصباح الأرواح) فيها بيان طريقته.

(٣) الشيخ فخر الدين العراقي: لقي الشيخ صدر الدين القونوي خليفة ابن عربي وأخذ عنه، وألف كتاب (اللمعات) الذي كتب عليه الشيخ عبد الرحمن الجامي (أشعة اللمعات)، توفي سنة ٦٨٨هـ.

obeikandl.com

خاطب فلاسفة الهند العقل في إثبات وحدة الوجود، وخاطب شعراء إيران القلب، فكانوا أشد خطراً وأكثر تأثيراً، حتى أشاعوا بدقائقهم الشعرية هذه المسألة بين العامة فسلبوا الأمة الإسلامية الرغبة في العمل.(١)

١- مفهوم الذات عند إقبال:

توصل إقبال إلى اختيار لفظة «خودي»(أي الذات) بعد جهد شاق، للتعبير عن المفهوم الذي يريده.

ويوضح إقبال لنا هذا المفهوم ضمن شرحه لمفهوم(خودي) الذي أملاه على السيد نذير نيازي في صيف ١٩٣٧م، أي قبل وفاته بشهور. اختيرت كلمة(خودي) بصعوبة بالغة وجهد شديد، فمن وجهة النظر الأدبية فيها العديد من المثالب ونواحي النقص، ومن الناحية الأخلاقية تستعمل عادة في كل من الفارسية والأردية بمعنى سيِّئ، وكذلك الحال من الكلمات الأخرى للحقيقة الميتافيزيقية لكلمة(أنا)، فكلها على الدرجة نفسها من السوء. ومثل(أنا) شخص، نفس، أنانية.

أما المطلوب فكان كلمة لمعنى الذات لا لون لها، وليس لها مدلول أخلاقي معين، وعلى علمي ليس هناك مثل هذه الكلمة لا في الأردية ولا في الفارسية، فكلمة(مين) في الأردية على القدر نفسه من السوء من ذلك، وحرصاً على متطلبات الشعر، فقد ألفيت أن كلمة(خودي) أكثرها مناسبة، وفي الفارسية بعض الشواهد أيضاً على استعمال كلمة(خودي) للتعبير عن الذات في معنى يسير، أي للتعبير عن حقيقة الأنا البسيطة، ومن ثم، ومن

(١) ديوان الأسرار والرموز، تعريب عبد الوهاب عزام – ص ١٣ - ١٤.

obeikandl.com

الناحية الميتافيزيقية، تستعمل كلمة (خودي) بمعنى محايد للشعور، بالأنا الذي يكون قاعدة الوحدة لدى كل فرد...

وعندما أشجب نفي الذات، فلا أعني نفي الذات بالمعنى الأخلاقي، لأن نفي الذات بالمعنى الأخلاقي مصدر لقوة الذات، لكني بإدانتي لنفي الذات، أدين تلك الأنماط السلوكية التي تؤدي إلى القضاء على (الأنا) كقوة ميتافيزيقية؛ لأن ذلك يعني تحلل الأنا وعدم قدرتها على الاستمرار الذاتي، وليست المثالية في الصوفية الإسلامية - حسب إدراكي - في القضاء على الأنا، وإنما في خضوع الذات الإنسانية كلية للذات الإلهية، ومثالية التصوف الإسلامي هي مرحلة وراء مرحلة الفناء، ألا وهي البقاء التي تعد من وجهة نظري، أعلى درجات تأكيد الذات، وعندما أقول: كن صلباً كالألماس فلا أعني ما يعنيه نيتشه من الصلابة أو قسوة الفؤاد، أو انعدام الرحمة، وإنما أعني تكامل عناصر الذات بحيث يمكنها أن تسد الطريق على قوى التدمير بوسائلها تجاه الخلود الذاتي، ومن الناحية الأخلاقية تعني (خودي) في استعمالي لها، الاعتماد على الذات، واحترام الذات، والثقة بالذات، والحفاظ على الذات، بل تأكيد الذات عندما يكون ذلك ضرورة لمصالح الحياة، والقدرة على الاستمساك بقضية الحق والعدالة والواجب... إلخ، حتى في مواجهة الموت، ومثل هذا السلوك: أخلاقي في نظري؛ إنه يساعد في تكميل قوى الذات، ويضفي عليها صلابة في مقابل قوى الانحلال والتفكك. ومن الناحية العملية تحمل الذات حقين رئيسين؛ وهما: الحق في الحياة، والحق في الحرية، كما تحددها الشريعة الإلهية.[1]

---

(١) محمد إقبال والحضارة الغربية (مرجع سابق) – ص ١٢٧ .

– وانظر كتاب تجديد التفكير الديني في الإسلام لإقبال – ص ١٠٩.

obeikandi.com

وسـار إقبال، لتوضيح فلسفته الذاتية في طريقين يكمل أحدهما الآخر، ويصـلان إلى هـدف واحد، طريـق إثبـات الذات(خـودي)، وطريق نفي الذات(بيخودي).

٢ – فلسفة إثبات الذات:

استقى إقبال فلسفته عن الذات من القرآن الكريم، يقول في محاضرته عن الذات الإنسـانية حريتها وخلودها: «ويؤكد القرآن شخصـية الإنسـان وفرديته... فهناك أمور ثلاثة واضحة كل الوضوح في القرآن:

١- أن الإنسان قد اصطفاه الله ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (طه).

٢- أن الإنسـان خليفة الله في الأرض.. ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:٣٠).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ (الأنعام).

٣- أن الإنسان أمين على شخصية حرة أخذ تبعتها على عاتقه:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (الأحزاب).[1]

وهكذا نجد إقبالاً قد جعل القرآن أساساً لفلسفته، وهي مأخوذة برمتها من القرآن الكريم.

---

(١) تجديد التفكير الديني في الإسلام (مرجع سابق) ص ١٠٩.

ويبين إقبال في رسالته إلى نيكلسون: أن هدف الإنسان الديني والأخلاقي إثبات الذات لا نفيها، وعلى قدر تحقيق انفراده أو وحدته يقرب من هذا الهدف.

إننا نسأل ما الحياة؟ وواضح أن الحياة أمر فردي، وأعلى أشكاله التي ظهرت حتى اليوم «أنا»، وبها يصير الفرد مركز حياة مستقلاً قائماً بنفسه، فالإنسان من الجانبين الجثماني والروحي مركز حياة قائم بنفسه، ولكنه لما يبلغ مرتبة الفرد الكامل.

وتنقص فرديته بمقدار بعده عن الخالق، والإنسان الكامل هو الأقرب إلى الله، ولكن ليس القصد من (أقرب) أن يفنى وجوده في وجود الله كما تقول فلسفة الإشراق[١]، بل هو، على عكس هذا، يتمثل الأخلاق التي أمر الله سبحانه بها؛ في نفسه وحياته.

والفلسفة الذاتية[٢] لدى إقبال نجدها منتشرة في شعره، وفي دواوينه كلها؛ من ديوان الأسرار والرموز الذي شرح فيه الذاتية بشكل مفصل، وحتى ديوان أرمغان حجاز (هدية الحجاز) إلا أنه خص ديوانه (الأسرار والرموز) بتفصيل فلسفته الذاتية. فهو في هذا الديوان، يشيد بكشفه الجديد، ويعرب عن ثقته بنفسه، وأنه الذي أيقظ الإنسان من سباته العميق، وعرفه بنفسه، يقول في هذا الديوان:

قطعَ الصبحُ على الليلِ السفرْ فَهَمى دمعي على خدِّ الزهرْ

(١) فلسفة الإشراق: نادى بها شهاب الدين السهروردي (٥٤٩هـ - ٥٨٧ هـ ١١٥٤م - ١١٩١م) ولد في سهرورد، وسافر إلى حلب، وقد أفتى العلماء بإباحة دمه نتيجة فلسفته المخالفة للإسلام. وأعدم في قلعة حلب (انظر: الأعلام للزركلي).

(٢) محمد إقبال سيرته وفلسفته، لعزام - ص ٧٩ ٨٠.

obeikandl.com

غسلَ الدمعُ سُباتَ النرجسِ وصحا العشبُ بمسرى نفسي
جربَ الزَّرَّاعُ قولي مُحصَدا مِصرعاً ألفى وسيفاً حصدا
ذرةٌ قد نالتِ الشمسَ أنا كمْ صباحٍ في فؤادي كمنا
إنني شمسٌ قريبٌ مولدي حُبُكاً في فَلَكٍ لم أُعْهدِ
أنا لحنٌ دونَ ضربٍ صعَدا أنا صوتُ شاعرٍ يأتي غدا
دونَ عصري كلُّ سرٍّ قد خَفِيْ ما بهذا السوقِ يُشرَى يوسفِيْ[١]
كم تجلّى شاعرٌ بعد الحِمامْ يوقظُ الأعيَنَ حيناً وينامْ
وجهه من ظلمةِ الموتِ سفَرْ ونما من قبرهِ مثلَ الزهرْ[٢]
صرتُ ناراً في ثيابي تسعَرُ صرتُ كالناي هُياجاً أضمِرُ
ثُرْتُ من أوتارِ نفسي نَغَماً شُدْتُ من حسنِ بياني إرَما[٣]
فرفعتُ الستْرَ عن سرِّ(خودي) فبدا الإعجازُ من أمرِ(خودي)[٤]

إلى أن يقول منوهاً بحب الإسلام وأمة الإسلام:

أنا مَنْ في ظلمةِ الليلِ أنارْ في طريقِ الملةِ البيضا غبارْ[٥]

(١) أفكاري لا يدركها هذا الجيل: وأنها جميلة جمال يوسف عليه السلام، ولكن ليس في هذا السوق من يشتريها.

(٢) هو شاعر المستقبل لا الحاضر، كثير من الشعراء لم يعرف قدرهم إلا بعد الموت.

(٣) إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد كما وردت في القرآن الكريم.

(٤) أبقيت كلمة (خودي) كما في الأصل ومعناه الذات وهي أساس فلسفة إقبال.

(٥) الملة البيضاء: الإسلام أي هو غبار من سيرها في الطريق.

obeikandl.com

صوتُها في الشرقِ والغربِ علا لحنُها في القلبِ ناراً أشعلا

قلمي في مسرحِ الفكرِ علا فجلا الأسرارَ في السبعِ العُلى[١]

ويبدأ إقبال موضحاً مفهوم الذاتية فيقول:

هيكلُ الأكوانِ من آثارِها كلُّ ما تبصرُ، من أسرارِها

وأنها حينما أيقظت نفسها أظهرت عالم الفكر:

نفسَها قد أيقظتْ حتَّى انجلى عالمُ الأفكارِ ما بينَ الملاَ

ومئة عالم خفية في ذاتها، وغيرها مثبت بإثباتها، وأنها بذرت في العالَم بذرة الصراع والتنافس، إذ حسبت نفسها غيرها، وهو يعني أنها حقيقة واحدة اتخذت ذواتاً مختلفة فتباينت وتنافست[٢]:

ألفُ لونٍ مختفٍ في ذاتِها غيرُها يثبُتُ من إثباتِها

جعلتْ بذرَ خصامٍ بِذْرَها نفسُها تنظُر فيها غيرُها

خلقَتْ أضدادَها من نفسِها لترى لذّتَها في بأسِها

إلى أن يقول:

تدمي مئة روضة لأجل وردة، وتثير ألف نوحة لأجل نغمة، وتمنح فلكاً واحداً مئة هلال، وتكتب من أجل كلمة واحدة مئة مقال، وعلى هذا

(١) الأسرار والرموز، تعريب عزام – ص ٥ – ١٢.

(٢) يعني أن حقيقة واحدة اتخذت ذوات مختلفة فتباينت وتناظرت. انظر محمد إقبال – لعزام – ص ١٠٣.

obeikandl.com

الإسـراف وهذه القسوة خلق الجمال المعنوي وتكميله، يعني أن بلوغ الكمال يقتضي فناء أشكال، وانعدام صور، وإمحاء أطوار.

ثم يقول إقبال:

وتراهـا من أجل عملها، عاملاً ومعمولاً، ووسـيلة وغايـة تنبعث وتثور، وتطير وتضيء، وتختفي وتخترق، وتقتل وتموت، وتنبت.[١]

ثـم يقول: إن حيـاة العالم من قوة الذات، فالحياة على قدر ما فيها من هذه القوة. فالقطرة حين تقوي ذاتها تصير درة، والجبل إذا غفل عن ذاته انقلب سهلاً وطغى عليه البحر.

٣ – مراحل ارتقاء الذات:

إن الذات عند إقبال تحيا وتموت، وتقوى وتضـعف، وتسـتحكم وتستقر وتتوتر، وتعز وتذل. ويبين إقبال مراحل ارتقاء الذات(خودي) وهي:

المرحلة الأولى: توليد المقاصد أو توليد الرغبات:

حياة الذات عند إقبال بخلق المقاصـد، وبالأمل الدائم، وتعظيم الذات علـى قدر عظم المقصـد، وعلى قدر المشـقة التي تحتملها في سـبيل ذلك، يقول في ديوان أسرار خودي[٢]:

إنمـا يُبقـي الحيـاةَ المقصِدُ جرسٌ في ركبها ما تقصِدُ[٣]

(١) في الأصل جمعها في بيت واحد: تقوم وتثير وتطير وتبرق، تحترق وتجعل وتضيء، وتقتل وتموت وتنبت. وقد اختصرها عزام – في ديوان الأسرار والرموز – ص ١٠٤. والظاهر أن الشاعر يريد قوة الحياة التي تتجلى في مظاهر مختلفة وتتداولها أحوال شتى، ولكنها الحياة المعينة المشخصة في الذوات الكثيرة.

(٢) ديوان الأسرار والرموز (مرجع سابق) ص ١٦، ١٧.

(٣) المقصد يشبه جرس القافلة الذي ينبهها للسير.

obeikandl.com

سرُّ عيشٍ في طلابٍ مضمرُ أصلُهُ في أملٍ مستترُ
أَحْيِ في قلبكَ هذا الأملا أو يَحُلْ طينُكَ قبراً مهملا
إنما يُحْيي الفؤادَ الأملُ وإذا حيَّ يموتُ الباطلُ
أملُ الذاتِ لهيبٌ يستعرْ أو هوَ الموجُ الذي لا يستقِرْ
ومماتُ الحيِّ فُقدانُ الرجاءْ يطفئُ الشعلةَ فقدانُ الهواءْ

بل يرى إقبال أن العقل ينمو بالأمل:

إنما أصلُ الحياةِ الأملُ فكذاك العقلُ منه ينسِلُ[١]

المرحلة الثانية: الجهاد لتحقيق تلك المقاصد:

فالحياة لدى إقبال لا تكون إلا بالجهاد، يقول في قصيدته الطويلة جواب الشكوى:

جهادُ المؤمنينَ لهمْ حياةٌ ألا إنّ الحياةَ هي الجهادُ
وخوفُ الموتِ للأحياء قبرٌ وخوفُ اللهِ للأحرارِ زادُ[٢]

وكذلك الحق لا يظهر ولا يسود إلا بالجهاد.

الجهادُ المرُّ حلفُ المسلمِ كي يدوِّي الحقُّ بينَ الأممِ
أفلا تدري بآياتِ الكتابْ أمةَ العدلِ يسمينا الخطابْ[٣]

(١) المرجع السابق. ص ١٧ (أي فكذلك العقل من مواليد الأمل).
(٢) الأعلام الخمسة للشعر الإسلامي (مرجع سابق) – ص ١٢٧.
(٣) ديوان الأسرار والرموز، تعريب عزام – ص ١٢٧.

obeikandl.com

وما كان ضعف الأمة الإسلامية إلا بتركها الجهاد في سبيل الله، يقول إقبال في وصية إبليس لتلاميذه السياسيين، وهي ذات مغزى سياسي عميق يكشف فيه عن تآمر الغرب على الأمة الإسلامية، يشغلها بأفكاره ومظاهره لتترك الجهاد: «إن المجاهد هو الذي يصبر على الجوع ولا يحسب للموت حساباً، أخرجوا محمداً ﷺ، من جسمه، فيصبح قليل الصبر، وجزوعاً من الفقر، شديد الخوف من الموت، وأشغلوا العرب بالأفكار الغربية، وانتزعوا من أهل الحرم تراثهم الديني تتمكنوا بذلك من إجلاء الإسلام من الحجاز واليمن، إن في الأفغان غيرة دينية، وعلاجها أن يقصى العالم الديني من جبالها وسهولها».[١]

وعلى الإنسان أن يسخر الأرض والكائنات المادية كي تساعده في جهاده الدائم، والله عز وجل خلق هذه الأكوان لخدمة الإنسان... يقول إقبال:

الأرضُ لا تُخفي حقيقةَ جوهري ... أنا مقصدُ التقديرِ في الأكوانِ
وحقيقتي نورٌ فما لي سابحاً ... في لجةِ الظلماتِ والأشجانِ
أنا أمةٌ فيما أريدُ لأمتي ... وولايتي دنيا من الأجيالِ
وأرى بمنظارِ الحقيقةِ كلَّ ما ... يبديهِ في الحقِّ الصريحِ خيالي

❖ ❖ ❖

فاخلُقْ لروحكَ من زئيرِكَ نشوةً ... في المجدِ ترهبُ في العرين أسودا
واجعلْ نشيدَكَ قولَ ربكَ (لا تَخَفْ) ... حتى يهابَ البرقُ منك رعوداً[٢]

(١) روائع إقبال للندوي – ص ١٠٨، وديوان ضرب الكليم تعريب عزام – ص ١٠٥.

(٢) إقبال الشاعر الثائر لنجيب الكيلاني (مرجع سابق).

openkandil.com

المرحلة الثالثة: مقام المؤمن الكامل:

ويؤكد إقبال أن مقام المؤمن الكامل يمثل آخر مدى قوة (خودي) واستحكامه، وقد استخلص إقبال صورة الإنسان الكامل من القرآن الكريم: - فهو خليفة الله في الأرض، ينفذ أحكامه في الأرض، شديد على الكفار، رحيم بالمؤمنين: قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح:٢٩).

- يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ (الحج).

- مجاهد في سبيل الله ولا يخاف أحداً إلا الله. قال تعالى: ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ (المائدة:٥٤).

- عزيز النفس لا يقبل الإهانة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ (آل عمران).

- صبور في كل مجالات الحياة. قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ (لقمان).

- غني النفس، عفيف لا يسأل الناس شيئاً ويعتمد على نفسه في كل أمر. قال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ (البقرة:٢٧٣).

obeikandi.com

- والإنسان المؤمن الكامل كما يصفه إقبال لا يزال يترقى في سلم الكمال ويتقرب إلى الله حتى يصدق فيه الحديث القدسي عن رسول الله ﷺ قال: «من عادى لي ولياً آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما زال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه»(١).

يقول إقبال يصف المؤمن الكامل:

يد المؤمن هي يد الله،

ولد من التراب،

آماله قليلة لكن أهدافه جليلة،

طُرُقه جذابة ونظره حاد،

إنه رقيق الحديث، لكن مطلبه عزيز،

في الحرب كالسلم قلبه وعقله طاهران.(٢)

ويقول في ديوان ضرب الكليم يصف أخلاق المؤمن الكامل:

مع الصحبِ لِيّنٌ كمسِّ الحريرِ ... بعيدٌ من القسوة المؤمنُ

حديدٌ إذا ما طغى باطلٌ ... جريءٌ لدى المغْرَكِ المؤمنُ

من الطينِ، لكنْ على الطينِ يسمو ... ويأبى على الفَلَكِ، المؤمنُ

(١) رواه البخاري - كتاب التوحيد - رقم ٧٤٠٥ - ورواه مسلم برقم: ٢٦٧٥.

(2) H.H.BILGRAMI IQBALS MIND AND THOUGHT

obeikandi.com

وما همُّهُ صيدُ طيرٍ ولكنْ يصيدُ من الملكِ المؤمنُ
تقولُ الملائكُ في غبطةٍ: حبيبٌ إلى قلبنا المؤمنُ
وللحورِ شكوى إلى ربِّها سريعٌ إلى هجرِنا المؤمنُ[1]

- والإنسان الكامل عند إقبال متصف بصفة الفقر إلى الخالق، والغنى عن الخلق، والفقر في لغة إقبال ليس عدم المال أو قلته، وإنما عدم استغناء المؤمن عن الخلق، حتى لو كان من أغنى الأغنياء، فالمال يجب أن يكون في يده لا في قلبه...

وإقبال يوضح معنى الفقر في قصيدته الرائعة،(فقر الصالحين) بأنه الحاجة للوصول إلى المعرفة الحقة، واليقين الكامل، وهو الغنى الحقيقي إذا وصل إليه!:

يا عبيد الماء والطين اسمعوا ما هو الفقر الغني الأرفعُ
هو عرفانُ طريقِ العارفينْ وارتواءُ القلبِ من عينِ اليقينْ
ذلك الفقرُ عزيزٌ في غناهْ هامةٌ الجوزاءِ من أدنى خطاهْ

٤- العوامل المضعفة للذات:

إن الذات تقوى وترتقي بفضل توليد المقاصد والجهاد والعشق، وهي تضعف بالخوف والسؤال والعبودية، والتفرقة الجنسية، والتفاخر بالأنساب.

---

(١) ديوان ضرب الكليم – تعريب عزام – ص ٢٩ – ٣٠.

يورد إقبال قصة رمزية بعنوان(مسألة نفي الذات من مخترعات الأمم المغلوبة لتضعف الأمم الغالبة بهذه الطريقة الخفية)، يبين إقبال في هذه القصة كيف أن الغنم الضعيفة المغلوبة على أمرها من قبل الأسود استطاعت أن تنزع براثن الآساد بإقناعها أن يكون طعامُها العشبَ بدل اللحم، وحدَّةُ الأسنان عاراً، والجنة خصت بالمستضعفين لا بالأقوياء...

علَفُ العشبِ به الروحُ تطيبُ عائفُ اللحمِ إلى الله قريبُ
حدّةُ الأسنانِ عارٌ مبرَمُ بصرُ الإدراكِ منها يُظلمُ
إنما القوةُ خسرانٌ مبينْ خُصَّتِ الجنةُ بالمستضعفينْ

وبما أن النفس تميل إلى حياة الدعة والراحة، وتنفر من التعب والجهاد سمعت الآساد كلام الغنم فتركت العمل، ولم يبق لها مقصد وأمل:

كانتِ الأسْدُ جهاداً ملَّتِ نازعاتٍ نحو عيشِ الدَّعةِ
جوهرُ الآسادِ أضحى خزَفا حينَ صارَ القوتُ هذا العلفا
فذوى في القلبِ شوقُ العملِ وهيامُ السعيِ خلفَ الأملِ

ويخلص إقبال في قصيدته المعبرة إلى أن حياة الدعة والاستكانة أذهبت الشجاعة والإقدام، وزرعت الخوف وسقوط الهمة:

ذهبَ الإقدامُ، والعزم الأليلْ والسنا والعزُّ والمجدُ الأثيلْ[1]
ونما الخوفُ بنقصِ المُنَّةِ قطَّعَ الخوفُ جذورَ الهمَّةِ

(١) العزم الأليل: العزم الشديد، المجد الأثيل: المجد الأصيل العظيم.

obeikandl.com

كلُّ داءٍ في سقوطِ الهمَمِ يجعلُ الأحياءَ مثلَ الرممِ
نامتِ الأسدُ بسحر الغنمِ سمَّت العجزَ ارتقاء الأممِ [١]

ويرمز إقبال بهذه القصة إلى نشر الغرب الذي كان ضعيفاً في مواجهة المسلمين الأقوياء أفكاراً جعلت المسلمين يركنون إلى الدنيا وملذاتها ويتخلون عن الجهاد رمز قوتهم.

وفي قصيدة الألماس والفحم يبين إقبال أن في الضعف والخوف موت الإنسان.

أنت من ضعفٍ كيانٌ تنفقُ وبلينٍ في قوامٍ تحرقُ
اهجرَنْ خوفاً وغماً لا تهُنْ وانضجَنْ كالصخرِ والألماسِ كُنْ [٢]

ومن العوامل المضعفة للذات السؤال، والعوز للآخرين، والالتجاء إليهم. بينما الثقة بالنفس، والاعتماد على الله، والاستغناء عن الناس يقوي الذات...

يقول إقبال في قصيدة ذات صور جميلة معبرة يبين فيها أن الإعواز أصل العلل، والسؤال ذل وخزي وعار، ويهيب بالمسلم أن يكون قدوته عمر الفاروق رضي الله عنه ويعتمد على نفسه، ويسعى في الأرض ويستعين بالله... وبذلك يصح المسلم، وبالجهاد والعمل والسعي ينال المسلم درجة حب الله ورسوله:

---

(١) ديوان الأسرار والرموز تعريب عزام – ص ٢٧ – ٣٠.

(٢) إشارة إلى أن الألماس كان فحماً فنضج في باطن الأرض. انظر الأسرار والرموز، تعريب عزام – ص ٥١.

obeikandi.com

أيها الجابي من الليثِ الخراجْ ... صرتَ كالثعلبِ خِبًّا باحتياجْ[١]

ذلك الإعوازُ أصلُ العللِ ... كلُّ أدوائِكَ من ذا المعضلِ

سالبُ الرفعةِ من فكرٍ رفيعْ ... مطفئُ الشمعِ منَ الذهنِ البديعْ

من كنوزِ الدهرِ أخرجْ ما تريدْ ... وخذِ الصهباءَ من دنِّ الوجودْ

وعنِ الرحلِ ترجَّلْ كعمَرْ ... احذرَنْ من منّةِ الناسِ الحذَرْ[٢]

تجدِ الإفلاسَ بالسؤلِ أذلّْ ... وترَ السائلَ خَزيانَ أذلّْ

لا ترُمْ في الأرضِ رزقاً بالبكاءْ ... لا تَرَجَّ الماءَ من عينِ ذُكاءْ[٣]

احذرِ الخزيَ أمامَ المصطفى ... يومَ يَخزى كلُّ ساعٍ ما وفى[٤]

جاهدِ الأيامَ والله استعنْ ... ماءَ وجهِ الملةِ البيضاءِ صُنْ

حتى يقول ضارباً المثل الأعلى في العزة والإباء:

كنْ حُباباً من عطاءٍ ينفِرُ ... فارغُ الكأسِ ببحرٍ يزخَرُ[٥]

---

(١) خبا: مخادعاً.

(٢) إشارة إلى قصة عمر رضي الله عنه حين سقطت درته من يده وهو راكب فنزل ليأخذها، ولم يرض أن يناوله إياها أحد.

(٣) لا تسأل الماء ولو من عين الشمس.

(٤) ما وفى: ما هنا نافية، وليست موصولة.

(٥) يتخيل الشعراء حباب الماء كأساً فارغة وهي في البحر، فضرب الشاعر الحباب مثلاً في الفقر والإباء. الأسرار والرموز – ص – ٢٣ – ٢٤.

obeikandl.com

والعبودية أيضاً من عوامل ضعف الذات، وفي تصور إقبال أن المؤمن هو الإنسان الحر، وغيرَ المؤمن أو الكافر هو الإنسان العبد. فالمؤمن أعلى الخلائق شأناً، قال تعالى:

«ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً»(١)

يقول إقبال:

أينَ منك الأفلاكُ؟ إنك حرٌّ وَهْيَ قهرٌ ذهابُها والإيابُ

– ففرق ما بين المؤمن والكافر، ففي رأي إقبال أن المؤمن يسخر هذا العالم ويقتحم عقباته إلى مقاصده العليا، ولا يحار في هذا العالم ولا يضل، بينما الكافر يضل في الكائنات ويذل لها:

إنما الكافرُ حيرا نٌ لهُ الآفاقُ تيهْ

وأرى المؤمنَ كوناً تاهتِ الآفاقُ فيهْ(٢)

– وفرق آخر: أن المؤمن أو الحر، مبتكر دائم الأمل والعمل، أما الكافر أو العبد فهو عاجز لا يبتكر ولا يجدد، يقول في أسرار خودي:

فطرةُ العبدِ حصولُ الحاصلِ ليسَ في تفكيرهِ من طائلِ

في مقامٍ من هُمودٍ راكدُ كلَّ حينٍ وجديدُ النغمةِ

– وفرق آخر أن العبد يعتل بالقضاء والقدر، ويرتبك في خيوط الزمان

(١) سورة الإسراء الآية: ٧٠.

(٢) ديوان ضرب الكليم، تعريب عزم – ص ٢٧.

obeikandl.com

أو ينسج شبكة الزمان على نفسه، والحر ناسج نفسه من الزمان، يقول إقبال في(رموز بي خودي):

نكتةٌ كالدرِّ خذها رائقةً ... بين حرٍّ ورقيقٍ فارقةً
حيرةُ العبدِ مسيرُ الزمنِ ... حيرةُ الأزمانِ قلبُ المؤمنِ
ينسجُ العبدُ عليهِ كفناً ... من صباح ومساءٍ مُذْعِنا
وترى الحرَّ من الطينِ نجا ... نفسَهُ حولَ الليالي نسجا
قيَّدَ العبدَ صباحٌ ومساءْ ... وثوى في فمهِ لفظُ القضاءْ[1]
وأرى الحرَّ مشيراً للقدَرْ ... صورتْ كفاهُ أحداثَ الدهَرْ[2]

ومن عوامل ضعف الذات، وضعف المجتمعات التي هي مجموعة ذوات:

الفرقة والفخر بالأوطان والأنساب، التي زرعها الغرب فينا، لإضعافنا وذهاب ريحنا ليسهل السيطرة علينا، وكان له ما أراد... يقول إقبال في(رموز بي خودي):

قطّعوا الأرحامَ بين الإخوةِ ... صيّروا الأوطانَ أسَّ الأمةِ
قدّسوا الأوطانَ إعجاباً بها ... قسّموا الإنسانَ أسراباً بها
طلبوا الجنةَ في(بئسَ القرارْ) ... فأحلّوا قومهمْ دارَ البوارْ[3]

(١) يعتل العبد بلفظ القضاء والقدر ويحلل الأمور عليه.

(٢) ديوان الأسرار والرموز تعريب عزام – ص ٦٥ – ٦٧.

(٣) اقتباس من القرآن الكريم، ارجع إلى سورة إبراهيم الآية ٢٨.

obeikandi.com

أنكرَ الإنسانُ وجهَ الإخوَةِ ... وانتهتْ قصةُ الانْسانيَّةِ[١]

ذهبَ الإنسانُ روحاً وانقضى ... بقيتْ أقوامهُ وَهْو مضى

منصبُ الدينِ حواه الساسةُ ... فنمتْ في الغربِ هذي الآفةُ

خطةٌ للوهنِ فينا حُبِكا ... في طريقِ الدهرِ ألقى حَسَكا[٢]

ويدعو إقبال إلى الوحدة الإسلامية، لأن الوطنية ليست من أسس تكوين الأمم، وإن الفخر بالأنساب من شيم السفهاء الجهلة... يقول إقبال في ديوان (رموز بي خودي):

نحنُ في الإسلامِ أبناءُ الخليلْ ... من (أبيكمْ) خذْ إذا شئتَ الدليلْ[٣]

أممٌ قد عبدَتْ أوطانَها ... وبنتْ منْ نسبٍ بنيانَها

أترى الأوطانَ أصلُ الأممِ ... تعبدُ الأرضَ بها كالصنمِ

إنما الأنسابُ فخرُ السفهاءْ ... حكمُها في الجسمِ، والجسمُ هباءْ

ضمَّنا في الحقِّ أسٌّ آخرُ ... هو في الألبابِ منَّا مضمَرُ

قد خلَصْنا من حدودٍ وقيودْ ... قَلْبُنا في الغيبِ إذ نحنُ شهودْ[٤]

---

(١) توصل همزة الإنسانية لإقامة الوزن.

(٢) ديوان الأسرار والرموز، تعريب عزام – ص ١٠٥ – ١٠٦.

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة (ملة أبيكم إبراهيم).

(٤) المرجع السابق – ص ٨٨.

obeikandl.com

وهكـذا نجـد إقبالاً من خلال قصـائده وخطبه[١] يحذر المسـلمين من دعـوى الوطنية والعرقية والتفاخر بالأنسـاب، وأنها مـا وجدت إلا لتفريق المسلمين وإضعافهم ليسهل السيطرة عليهم.

٥ – تربية الذات:

رأينا أن الذات ترتقي خلال مراحل: أولها مرحلة توليد المقاصد أو توليد الرغبات، والمرحلة الثانية لتوليد المقاصـد هي مرحلة الجهاد لتحقيق هذه المقاصـد، ولنجاح هذا الجهاد يذكر لنا إقبال ثلاثة شـروط هي: الطاعة، وضـبط النفس، والنيابة الإلهية؛ التي يعدها إقبال أصـول فلسفة الأخلاق الإسلامية ومراحل كمال الذات الإنسانية.[٢]

أ – الطاعة، أو إطاعة القانون الإلهي:

ويقصـد إقبال بالطاعة طاعة الله عز وجل ورسـوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ ﴾ (آل عمران).

وهذه الطاعة تقتضـي الانقياد والاستسـلام لأوامر الله تعالى، وتنفيذ قانونه في الأرض، وحمل رسالته بقوة لا يخالطها خوف أو وجل... ويضرب لنا إقبال في(أسـرار خودي) مثـال الجمل للمؤمن الطائع... الذي يسـير ويقطع الفيافي بكد وصبر وطعام قليل، وهو مع ذلك ثملٌ راقصٌ من الفرح. يقول إقبال:

---

(١) انظر خطبة إقبال في حفلة الرابطة الإسلامية سنة ١٩٣٠م. (كتاب فلسفة إقبال والثقافة الإسلامية في الهند، للأعظمي والشعلان).

(٢) انظر رسالة إقبال إلى نيكلسون في (محمد إقبال سيرته وفلسفته، لعزام – ص ٨٤).

obeikandl.com

إلفـةُ الكـدِّ شـعارُ الجمـلِ شـيمةُ الصـبرِ وقـارُ الجمـلِ
صامتَ الأخفافِ يمشي ماضياً زورقـاً في البيدِ يسري هاديا
ثـمِـلاً يختـالُ تحـتَ المحمَـلِ راقصاً يقدُمُ شطرَ المنـزلِ[١]

وبما أن الإنسان جزء من هذا الكون، فالقانون الإلهي يشمله، وكما يعلو النجم وينمو العشب بفضل طاعة هذا القانون. كذلك الإنسان يعلو ويسود في طاعته أو ينحط ويذل في معصيته مهما كان قوياً:

بامتثالِ الأمـرِ يعلو مَنْ رسبْ وَهُـو الطـاغي ولـو كـانَ اللهَبْ
قد سـرى النـجمُ يـؤمُّ المنـزلا طـوعَ قـانـونٍ لـه قـد ذلّـلا
ونمـا العشبُ بقانونِ النَّمـاءْ فإذا ما حادَ يُجفى بالعـراءْ[٢]

وينصـح إقبالٌ المسلمَ بالرجوع إلى دسـتوره القديم وإن كان فيه شدة، وألا يشـكو فيه الشدة، ويلتزم سنن المصطفى ﷺ، والصبر عليه، لأن فيه خيره وسعادته وحريته.

ارجعَـنْ يـا حُـرَّ دسـتورٍ قديمْ زينـَنْ رجلك بالقيدِ الوسيمْ
شـدةً في شـرعنـا لا تشـكوَنْ وحـدودَ المصطفى لا تعـدوَنْ[٣]

(١) ديوان الأسرار والرموز تعريب عزام – ص ٣٧.
(٢) المرجع السابق – ص ٣٨.
(٣) المرجع السابق – ص ٣٨.

obeikandl.com

ب – ضبط النفس:

يرى إقبال أن الإنسان يستطيع التحكم بذاته، إن شاء أفلت زمامها فتوجهت إلى الشر حسب ميولها، وإن شاء ضبطها وتحكم بها وقاد زمامها إلى الخير والفلاح، وكل من لا يحكم نفسه يقيم في حكم غيره مرغماً:

جَمَلٌ نفسُك تربو بالعلَفْ ... في إباءٍ وعنادٍ وصلَفْ

فكنِ الحرَّ وقُدْها بزمامْ ... تبلغَنْ من ضبطِها أعلى مقامْ

كلُّ مَنْ في نفسِه لا يحكمُ ... هو في حكم سواه مرغمُ[١]

وضبط الذات الإنسانية يكون بتزكيتها بالإيمان الصادق، وبلا إله إلا الله أو بالعبادة المستمرة؛ بالصلاة والصيام والحج والزكاة، وهذه الخمسة تمثل أركان الإسلام، قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً»[٢].

وبهذه التزكية يتحطم الخوف في نفس المسلم فلا يخشى إلا الله، ويعلو على الباطل والشر، ويسود على ذاته وعلى الأمم الأخرى.. يقول إقبال في ديوان أسرار خودي:

مَنْ يمسِّكْ بعصا (توحيده) ... فلتحطِّمْ يدُهُ مِنْ خوفهِ[٣]

---

(١) المرجع السابق – ص ٢٩.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) (توحيده) إشارة إلى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، والشاعر يستعملها في شعره مختزلاً بذكر جزئه الأول (لا إله) وهو غير مناسب في سياق الترجمة، والمعنى أن السبيل إلى إبطال الخوف من غير الله أن تمسك بعصا التوحيد، كعصا موسى التي تبطل السحر.

obeikandl.com

ليس يدنو الخوفُ منهُ أبداً ... ليسَ، غيرَ اللهِ، يخشى أحداً

درةُ التوحيد، فاحفظْها الصلاةْ ... حجُّكَ الأصغرُ، فاعرفها، الصلاةْ

في يدِ المسلم هذا الخنجرُ ... يُقْتَلُ الفحشُ به والمنكرُ

يفتكُ الصومُ بجوعٍ وصدى ... ضابطاً بالقسطِ هذا الجسدا[1]

وينيرُ الحجُّ قلبَ المؤمنِ ... هجرةُ الأهلِ بهِ والوطنِ

بالزكاةِ العابدُ المالَ ادَّكَرْ ... علَّمتْ حبَّ المساواةِ البشرْ

تلك أسبابٌ بها تَسْتَحْكِمُ ... إن يكنْ في القلبِ دِينٌ مُحكَمُ[2]

ج – النيابة الإلهية:

يقول إقبال في رسالته إلى نيكلسون معرفاً بالنيابة الإلهية: «والنيابة الإلهية في هذه الدنيا هي أعلى درجات الرقي الإنساني، ونائب الحق (الله) خليفة الله في الأرض، وهو أكمل ذات تطمح إليها الإنسانية، وهو معراج الحياة الروحي.

تلتئم في حياة نائب الحق عناصر النفس المتضادة، توحدها أعلى القوى وأعلى الأعمال، فيتوحد فيها الذكر والفكر والخيال والعمل، والعقل والخصائص الجِبلِّيَّة، فهو آخر ثمر في شجرة الإنسانية، تُحبب إليه الصعاب والشدائد في سبيل رقي الحياة، وهو الحاكم الحق ببني الإنسان، لأن حكومته هي في الحقيقة حكومة الله ونحن نقترب منه على قدر ارتقائنا، وبهذا القرب تعلو قيمتنا في الحياة [3]».

---

(١) الصدى: العطش.

(٢) ديوان الأسرار والرموز تعريب عزام – ص ٣٩ – ٤٠.

(٣) محمد إقبال سيرته وفلسفته – د. عزام (مرجع سابق) – ص ٨٤ – ٨٥، ومقدمة ديوان الأسرار والرموز، تعريب عزام – ص ١٩ – ٢٠، وإقبال الشاعر الثائر – ص ٧٢.

obeikandl.com

يقول إقبال في هذا الفصل:

نائبُ الحقِّ على الأرضِ سعيدْ حكمهُ في الكونِ خُلْدٌ لا يبيدْ
هو بالجزءِ وبالكلِّ خبيرْ وبأمرِ اللهِ في الأرضِ أميرْ
باعثٌ في الشِّيبِ ألحانَ الشبابْ ناثرٌ في الكونِ ألوانَ الشبابْ
هو في الناسِ بشيرٌ ونذيرْ وَهْوَ جنديٌّ وراعٍ وأميرْ

إلى أن يقول مشيداً بهذا الإنسان، راجياً أن يقوم بواجباته على الوجه الأكمل:

جددَنْ في الناسِ قانونَ الإخاءْ وأدرْها كأسَ حبٍّ وهناءْ
أبلغِ الناسَ رسالاتِ السماءْ وأعدْ في الأرضِ أيامَ الصفاءْ
من بني الإنسانِ أنتَ الأملُ أنتَ في ركبِ الحياةِ المنزلُ
أذبلتْ كفُّ الخريفِ الشجرا فاغدُ في الروض ربيعاً نضرا[1]

والخليفة الحق المرجو هذا لا يأتي من فراغ، إنما يظهر في مجتمع صالح فاضل، يقول إقبال في رسالته إلى نيكلسون: «وأول شرط لظهور خليفة أن ترقى الإنسانية في جانبها الروحي المادي، فإن ارتقاء الإنسانية يقتضي ظهور أمة مثالية تتجلى في أفرادها في الجملة هذا التوحد الذاتي، وتصلح لأن يظهر فيها الخليفة الحق[2]».

(١) المرجع السابق – ص ٤١، ٤٢، ٤٣.

(٢) ديوان الأسرار والرموز، تعريب عزام – ص ١٩، ومحمد إقبال.. لعزام ص ٧٨، من رسالة إقبال إلى نيكلسون.

obeikandl.com

٦- المجتمع الذي تحتاجه الذات في ترقيتها:

هو المجتمع المسلم الذي يقوم على التوحيد، أي حاكمية الله، دستوره القرآن، وغايته إعلاء كلمة الله، له قبلة واحدة، ويقوم على أسس واحدة، وقد نادى إقبال بهذا المجتمع المسلم في بواكير الصحوة الإسلامية في هذا العصر، يوضح أركان المجتمع الإسلامي الذي تتربى فيه الذات حتى تصل إلى مرحلة النيابة الإلهية، أو الخلافة في الأرض، وأهم هذه الأركان والأسس:

أ - التوحيد:

وهو أن يقوم المجتمع على منهج لا إله إلا الله، الذي يقتضي نفي جميع الآلهة المزيفة، والأوثان، وعبادة الأشخاص، والأهواء. ولا إله إلا الله، هي أهم الأركان في الأمة، وهي بمثابة الروح للبدن فهل يحيا البدن من دون روح؟ فهي أساس الفكر والعمل والعلم والثقافة، وهي أساس المساواة بين الناس، وهي ميزان الحسن والقبيح، وهي أساس الوحدة التي فيها عزة الأمة ورفعتها.

يقول إقبال في ديوان(رموز بي خودي) تحت عنوان: أركان الأمة الإسلامية:

كَلِمَةُ التوحيدِ روحُ الأمةِ ... كَلِمَةُ التوحيدِ لحنُ النغمةِ
كَلِمَةُ التوحيدِ سرٌّ سرِّنا ... كَلِمَةُ التوحيدِ سمطُ فكرِنا
بيّضَ التوحيدُ مسودَّ البشرْ ... فأبو بكر مؤاخٍ لعمرْ
وحدةُ القلبِ قوامُ الأمةِ ... أشرقتْ سيناءُ من ذي الجلوةِ
نزعةٌ واحدةٌ في قلبِها ... فعيارُ الحسنِ والقبحِ بها

قد خلَصْنا من حدودٍ وقيودْ قَلْبُنا في الغيبِ إذ نحنُ شهودْ[١]

نحنُ فكرٌ وخيالٌ واحدُ ورجاءٌ ومآلٌ واحدُ[٢]

والتوحيد دواء لأمراض خطيرة في المجتمع كالخوف والحزن واليأس، يقول إقبال:

عُدَّةُ الموتِ قنوطٌ محبطُ والحياةُ الحقُّ أَنْ لا تقنطوا[٣]

إنما العيشُ رجاءٌ يوصلُ فقنوطُ الحيِّ سمٌّ يقتلُ[٤]

يا سجينَ الفمِ أبصرْ واسمَعِ من رسولِ اللّٰه (لا تحزنْ) وعِ[٥]

ذلك النصحُ سرى في قلبِهِ فغدا الصدِّيقُ صدِّيقاً بهِ

قوةُ الإيمانِ تحيي فاعلمَنْ وِرْدَ (لا خوفٌ عليهمْ) فاقرأَنْ[٦]

قلبُهُ من (لا تخفْ) قلبٌ سليمْ حين يمضي نحوَ فرعونَ كليمْ[٧]

---

(١) أمتنا مؤسسة على العقيدة لا على الأرض، فقلوبنا ليست رهن الحس بل هي متصلة بالغيب أي بالمعاني التي لا تحدها الأوطان.

(٢) ديوان الأسرار والرموز تعريب عزام – ص ٨٧ – ٨٨.

(٣) مقتبس من القرآن ﴿ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر:٥٣).

(٤) رجاء يوصل: رجاء دائم لا ينقطع.

(٥) مقتبس من القرآن الكريم، قول الرسول ﷺ لأبي بكر وهما في الغار ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة:٤٠).

(٦) إشارة إلى الآية: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (يونس).

(٧) إشارة إلى قصة موسى وفرعون وقول الله تعالى لموسى: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ ﴾ (طه).

كلُّ مَنْ يفقَهُ سرَّ المصطفى يجدُ الإشراكَ في الخوفِ اختفى[١]

وإقبال في قصيدته (محاورة السيف والقلم) و(قصة السلطان عالمكير والأسد) يبين كيف أن الإيمان الصادق، يقضي على الخوف والوهن، ويحول المؤمن إلى قوة شجاعة تقضي على الباطل، وتنصر الحق والخير.

وفي قصيدة (قصة أبي عبيد وجابان)[٢] يبرز إقبال دور التوحيد في المساواة، وروح الأخوة بين أفراد الأمة الإسلامية، يستوي فيهم الكبير والصغير، والقائد والجندي، والغني والفقير.[٣]

وفي قصيدة (السلطان مراد والعمار) تظهر معاني المساواة في الإسلام[٤]، وفي قصيدتين متتابعتين يؤكد إقبال أن العقيدة المؤسسة على التوحيد وليست الدعوات الوطنية؛ هي أساس تكوين الأمة الإسلامية.

يقول إقبال:

لا تحدُّ الأرضُ قلبَ المسلمِ لا يُرى في تيهِ: أنّى وكَمِ[٥]

ليسَ للمسلمِ في الأرضِ عَطَنْ حائرٌ في قلبهِ كلُّ وطَنْ[٦]

---

(١) المرجع السابق – ص ٩١ – ٩٢.

(٢) أبو عبيد الثقفي أحد جنود المسلمين في فتح العراق وجابان قائد فارسي.

(٣) ديوان الأسرار والرموز، تعريب عزام - ص ٩٩ – ١٠٠.

(٤) المرجع السابق – ص ١٠١.

(٥) أي أنه لا يتيه في عالم الأسباب والمقادير.

(٦) يقول إقبال في هذا المعنى: في ديوان ضرب الكليم:

إنما الكافر حيرا ن له الآفاق تيهُ

وأرى المؤمن كونا تاهت الآفاق فيهُ

obeikandi.com

أمــةً مــلْءَ الـدنـا قـدْ أسَّـسـا جـعـلَ الـتـوحـيـدَ فـيـهـا أُسُـسـا

صـارتِ الأرضُ لدينا مسجدا إذ أشاعَ الفضلَ فينا وهَدى[1]

ب – الرسالة والقيادة الملهمة:

من أسس المجتمع الصالح الذي تحتاجه الذات في ترقيها –أيضاً– الرسالة أو القيادة الملهمة التي تسير بنور الله وحكمته، وتنشر العدل والمساواة والحرية بين الناس جميعاً.

وتتمثل هذه الرسالة بالرسالة الإسلامية التي بنت أعظم دولة عرفها التاريخ، وتميزت بالعدل والرحمة والمساواة، فضلاً عن توحيدها المجتمعات المختلفة الألوان واللغات والأجناس في أمة واحدة، ذات هدف واحد، وطريق واحد.

يشير إقبال في ديوانه (رموز بي خودي) إلى الأمة التي اهتدت بهدي هذه الرسالة، وسارت على هدي الوحي الذي أنزل على المصطفى ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

يقول إقبال:

نـحـنُ ممـا جـمـعـتْـنـا أمـــةٌ أرسـلـتْ للناسِ فيها الرحمةُ

أمـةٌ في حِـرْزِ سـورِ الحـرَمِ في حفاظٍ مثلِ أُسْـدِ الأجَمِ[2]

---

(١) المرجع السابق – ص ١٠٤.

(٢) إشارة إلى بيت البردة للبوصيري:

أحل أمته في حرز مِلّته كالليث حل مع الأشبال في أجم

obeikandi.com

فالنبيُّ الـروحُ فينا والعصَبْ ومِـنَ الآبـاءِ للقلْبِ أحَـبْ
سِـفْرُه في القلبِ نبعُ القـوةِ شـرعُـهُ حبلُ وريـدِ الأمـةِ
وحـدةُ القصدِ حياةُ الكثرةِ مقصِدُ المسلمِ دينُ الفطرةِ[١]
علَّمَ الفطرةَ خيرُ الرسُـلِ فمضينا للهدى كالشُّعَـلِ
ختـمَ اللّه علينـا شِـرْعَتَـهْ وعلى المرسَلِ فينا بعثَتهْ[٢]
محفـلُ الأيـامِ منـا يبسـمُ خُتِـمَ الـرُّسْـلُ بنـا والأمـمُ[٣]

ومـن مقومـات حيـاة الأمة الإسـلامية لـدى إقبال اتصـال المسـلمين الدائم بالرسـالة الإسـلامية، وحبهم لحاملها. وكثيراً ما يفيض إقبال بحـب المصـطفى ﷺ القصـائد الطـوال في مدحـه، والتـي تعـد من أجمل القصـائد الوجدانية، يقـول إقبال: «إن قلب المسـلم عامر بحب المصـطفى ﷺ، وهو أصل شرفنا، ومصـدر فخرنا في هذا العالم. لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد فكان أن وجدت أمة، ووجد دستور، ووجدت دولة».[٤]

(١) دين الفطرة: هو دين الإسلام.

(٢) في حاشية الأصل بيت من البردة للبوصيري:

لما دعا الله داعينا لطاعته بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم

(٣) ديوان الأسرار والرموز، تعريب عزام - ص ٩٦ – ٩٧.

(٤) روائع إقبال للندوي – ص ٣٦، والقصيدة شعراً في ديوان الأسرار والرموز، تعريب عزام – ص ١٨ – ١٩.

obeikandl.com

ج – الدستور القرآني:

يقول إقبال في ديوان (رموز بي خودي) في قصيدة بعنوان: (في بيان أن الأمة لا تنتظم بغير شريعة، وشريعة الأمة المحمدية القرآن):

الكتابُ الحيُّ والذكرُ الحكيمْ ... حكمةٌ في الدهرِ تبقى لا تريمْ

ذا بلاغٌ آخِرٌ للمرسلينْ ... قد تلاه رحمةٌ للعالمينْ

ذلك الينبوعُ من آمالنا ... قد حواه الصدرُ من أطفالِنا

قرأ الدرسَ من الآي المبينْ ... فغدا بالحقِّ حراً لا يمينْ[١]

حكمَ الدنيا جميعاً عدلُهُ ... عرشَ(جَمٍ) وطئتهُ رجلُهُ[٢]

مُدُناً قد شيَّدَتْ هبوتُهُ ... ورياضاً أنبتَتْ زهرتُهُ[٣]

لكتابِ اللهِ حقٌّ فاقرأَنْ ... كلُّ ما تبغيهِ منه فاطلبَنْ[٤]

ويقول أيضاً مبيناً أن القرآن روح الإسلام، وحبل الله المتين الذي يعتصم به كل مؤمن، وهو بمثابة القلب من الجسد:

وحدةُ الشرعِ حياةُ الأمةِ ... فمنَ القرآنِ روحُ الملَّةِ

نحنُ طينٌ وهو قلبٌ لا جرَمْ ... هوَ حبلُ اللهِ من شاءَ اعْتصمْ[٥]

---

(١) لا يمين: لا يكذب.

(٢) جم: جمشيد أحد ملوك الفرس القدماء.

(٣) الهبوة: الغبار الذي يثور في الحرب.

(٤) ديوان الأسرار والرموز، تعريب عزام – ص ١١٢ – ١١٣.

(٥) المرجع السابق – ص ١١٥.

د – المركز المحسوس:

تحتاج الأمة إلى مركز محسوس ترنو إليه في مختلف الأوقات، ومركز الأمة الإسلامية البيت الحرام، فالبيت الحرام مركز يدور حوله المسلمون في طوافهم الذي لا ينقطع ليلاً ولا نهاراً، وهو مركز تجمعت حوله المجتمعات والأفراد بعد النداء الأول لإبراهيم الخليل عليه السلام.

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الحج).

والمسلمون اليوم هم الدليل على صدق أن البيت الحرام يجمع الناس ويكون مركز الأمة، والمسلمون هم البرهان على ما أمله الخليل في الحرم.

ومن المنافع التي ذكرها القرآن في الحرم وحدة القلوب والنفوس والقوى، ومن ثم وحدة الأمة، يقول إقبال في ديوان (رموز بي خودي):

هكذا سنةُ ميلادِ الأممْ ... مركزٌ فيه حياةٌ تنتظِمْ

إنما المركزُ روحُ الدائرةْ ... نقطةٌ، فيها محيطٌ، ضامرَةْ

ومن المركزِ للقومِ نظامْ ... ومن المركزِ للقومِ دوامْ

نقطةُ المركزِ منا الحرَمُ ... لحنُنا والوجدُ فينا الحرَمُ

نحنُ دعواه، وفي الدنيا دليل ... نحنُ فيه مِن براهينِ الخليلْ

وحدةُ الملةِ طَوْفٌ حولَهُ ... فَهْيَ صبحٌ قد حوى صدرٌ لهُ

وحّدَتْ في حبه كثرتَنا ... أحكمَتْ من وحدةٍ قوتَنا

إن في الجمعِ حياةَ الأممِ ... إن هذا الجمعَ سرُّ الحرَمِ [1]

(١) المرجع السابق – ص ١٢٣ – ١٢٤.

هـ - الهدف الواضح:

أيضـاً يجب أن يكون للمجتمع هدف واضح ومقصد يتمسك به الأفراد وينشـرونه بين المجتمعات... وهذا ينطبق على المجتمع المسـلم الذي هدفه حفظ التوحيد ونشره بين الناس:

كِلْمة التوحيدِ منكَ المقصدُ أنـت للتكبـيرِ فيهـا توجَـدُ[١]

فالتوحيد هدف ومقصـد أساسي، بشرط أن يصدقه العمل والدأب في الحياة، يقول إقبال في ديوان(رموز بي خودي):

إنمـا المقـصـودُ روحُ العـملِ كيـفُـهُ والـكـمُّ منـه تجتـلـي[٢]

أيـهـا الـتـالي الـكـتـابَ قـد نـزَلْ شـمـرَنْ، لا تقعـدنَّ عـن عمَلْ[٣]

وإقبال ينطلق من خلال تصـور إسلامي صحيح. وقد روي عن الحسن البصـري رحمه الله «إن الإيمـان ليـس بالتحلـي ولا بالتمني، إنمـا الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل»[٤]، والتوحيد يتطلب الجهاد الدائم لرفع راية الحق:

الجـهـادُ المـرُّ حـلـفُ المسـلـمِ كَـيْ يـدوِّي الحـقُّ بـين الأمـمِ[٥]

---

(١) المرجع السابق – ص ١٢٧.

(٢) يتبين العمل من مقصوده، المرجع السابق – ص ١٢٦.

(٣) المرجع السابق – ص ١٢٨.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة، باب الإيمان، برقم ٩٠.

(٥) الأسرار والرموز – تعريب عزام – ص ١٢٧.

obeikandi.com

والتوحيد يفيض بالعدل بين الناس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ (النحل:٩٠).

أوَلا تـدري بـآيـاتِ الـكتـابْ أمةَ العدلِ يسمينا الخطابْ[١]

والتوحيد ينشـر الأخلاق الفاضلة، والسلوك الحسن بين الناس، لذلك كانت الأمة الإسلامية حسنة السيرة لأنها تأدبت بالآداب المحمدية.

يقول إقبال على لسان والده الذي ينصحه بالتأدب بالآداب النبوية[٢]:

فـطـرةُ المسـلـم طـُـرّاً رأفـــةٌ قـولُـه والـفـعـلُ كـلٌّ رحـمـــةٌ
العظيمُ الخُلْق من شَقَّ القمرْ رحـمـةٌ عـمَّـتْ ونـــورٌ للبشـرْ
طـيـنـةُ المسـلـمِ درٌّ يـا بنـيّ ماؤها والـنـورُ من بحرِ النبِـيّ

و – تسخير قوى العالم:

يقول إقبال في قصـيـدة بعنوان: في بيان أن ازدهار حياة الأمة بتسـخير قوى العالم:

مـا سوى اللّٰه لتسخيرِ العملْ صـدرُهُ للرمي فاقذفْ لا تُبَلْ
مـا سـوى اللّٰه تـراه يخلـقُ لـتـرى سـهـمـك فـيـه يمـرقُ
مَـن يسخِّرْ عـالَم الحسِّ سما ومـن الـذرةِ يـخـرِجْ عـالَـمـا

(١) المرجع السابق – ص ١٢٨.

(٢) هذه الأبيات في ديوان: رموز بي خودي: جزء من قصيدة قالها إقبال بمناسبة قصة وقعت له مع أبيه، إذ قسا على متسول طرق الباب فضربه بالعصا فتأثر الأب كثيراً، وأخذ يخاطب ابنه بأبيات جميلة عن الآداب المحمدية العالية. (ارجع إلى: ديوان الأسرار والرموز، تعريب عزام – ص ١١٨).

obeikandi.com

كلُّ ما في الكونِ من بحرٍ وبَرّْ لـوحُ تعليمٍ لأربـابِ النظـرْ
أيهـا النـائمُ طـالتْ غفلتُهْ عـالمُ الحسِّ جفَتْهُ همتُهْ
إنـه توسـيعُ ذاتِ المسـلـمِ وامتحـانٌ لصفاتِ المسلمِ [1]

ولم يخرج إقبال عن التصور الإسلامي حين يقول بتسخير القوى المادية لخدمة الإنسـان، ويدعو المسـلم النائم الغافل إلى النهوض واليقظة بينما الأمم الأخـرى بنت على مبادئ العلماء الأجـداد، وتقدمت مادياً في مجال الحضارة، فإن الله عز وجل ذلل الأرض للإنسان:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ (الملك).

والله عز وجل سخر لنا القوى المادية لنستفيد منها في الحياة الدنيا:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ (النحل:١٢-١٤).

وهذه الآيات القرآنية توحي لإقبال فكرة تسخير القوى المادية لبني آدم حتى في الفضاء فيقول:

(١) المرجع السابق – ص ١٢٩ – ١٣٠.

أدهمُ الفكرُ الذي يطوي الفضاءْ ... والـذي يجتـازُ آفـاقَ السـماءْ

ساقهُ في الكونِ حاجاتُ الحياةْ ... فهو في الأرضِ وفي النجم خُطاهْ

يبتغي في الكونِ تسخيرَ القُوى ... لتـُرى فيه بأعلى مستوى

نـائـبُ الحـــقِّ، بحـــقٍّ آدمُ ... حكمُه في الأرضِ ماضٍ حاكمُ[1]

لـك مـن ضيقكَ فيها سعَـةٌ ... ولأعـمـالـك فيـهـا فُسـحـةٌ

ثـابتُ الأنجـمِ أو سيّـارُهـا ... والتي قد عُبِدَتْ أنوارُهـا[2]

كلُّهَا يا صاحِ (عُبّـدانٌ) لكا ... أو ما قد سخرت من أجلِكا

سيِّـرَنْ فكرك فيها عَسَسَا ... سـخـرَنْ آفـاقَـهـا والأنـفـُسـا

افتـحِ الـعـينَ وأنـعـمْ نظـرا ... أبصرَنْ في الراحِ معنىً مضمَراً[3]

ويلح إقبال على النظر في الكون والطبيعة، لمعرفة قوانينها، والسيطرة عليها لصالح الإنسان، ويتساءل إقبال: كيف لا تنظر أيها الإنسان المسلم في آفاق الكون وأنت المقصود بقوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ (الأعراف).

ومع ذلك تبقى غافلاً بائساً عاجزاً، تائهاً، كقيس الذي هام في الصحراء يائساً من الوصول إلى الحبيبة ليلى... بينما غيرك من الأمم الأخرى بلغوا

(١) أي أن الإنسان خليفة الله في الأرض بالحق وحكمه فيها نافذ.

(٢) في البيت إشارة إلى ديانة الصابئة الذين يعبدون النجوم.

(٣) ديوان الأسرار والرموز، تعريب عزام – ص ١٣٠ – ١٣١.

obeikandl.com

هدفهم في التقدم والرقي وحطوا رحالهم:

أيها المقصودُ من أمرِ (انْظروا) كيفَ في آفاقِها لا تنظرُ
أيها الظالعُ في حَزْنِ الحياةْ أيها الغافلُ عن طعن الحياةْ[1]
بلّغَ السعيُ الرفاقَ المنزِلا أنزلوا ليلى وحطوا المحْمَلا
وبقيتَ اليومَ قيساً مُبْلِساً في الصحاري عاجزاً مستيئِساً[2]

ز – شعور المجتمع بذاته:

الشعور بالذات صفة المجتمع المتحرك العامل المترقي في الحياة، وما أغفل مجتمع ذاته إلا عاش على هامش الحياة، وتأخر عن ركب الحضارة وسبقه الآخرون في هذا المضمار.

فالمجتمع كالفرد يتطور فيه الشعور بالذات، أثناء النمو، فالأمة حين نشأتها كالطفل الذي لا يعرف ذاته، ولا يدري ما يدور حوله، إلا الشعور بأمه التي تغذيه، فإذ كبر ونضج يتجلى له الشعور بالذات أثناء تقلبات الدهر وحوادثه، وكذلك الأمة، فإذا اختبر قواها الدهرُ بحوادثه تجلى لها الشعور بذاتها، وسطرت تاريخها بيديها. يقول إقبال في ديوان (رموز بي خودي):

أرأيتَ الطفلَ ياذا (البصرِ) ماله عن نفسهِ من خبَرِ
ليس يدري ما قريب أو بعيدْ كرةَ النجمِ بكفَّيه يريدْ

(١) الظالع: الذي يعرج في مشيته.

(٢) المرجع السابق – ص ١٣١.

obeikandl.com

ما سوى الأمِّ يرى منه الجفاءْ هـمُّـه أكـلٌ ونـومٌ وبكـاءْ
ومـنَ الـذكـرى يـنـمِّـي نفسَـهُ غـدُهُ يـربطُ فيـهِ أمسَـهُ
«أنا» هذي بِدءُ مقصودِ الحياةْ نغمةُ اليقظةِ في عودِ الحياةْ
مـثَـلُ الأمـةِ حـينَ الـنـشـأةِ مثلُ الطفلِ ضعيفُ المُنَّةِ[١]
هـي طفـلٌ نـفسَـهُ لا يعـرفُ جوهـرٌ غشَّى عليهِ الصدفُ
يـومُـهُ بـالـغـدِ لم يـوصـلْ ولا بصـباحٍ ومسـاءٍ سُلْسِلا
فـإذا رازَ قـواهـا الـدَّهَـرُ يتجلى ذا الشعورُ المضمَرُ[٢]
أسطُراً "تمحو" وأخرى تسطُرُ صـفـحـاتٍ بيديها تـزبُـرُ[٣]

وإن من أسس توليد الشعور في الذات، وتكميله في المجتمع، الاحتفاظ بتاريخ الأمة وسيرتها، فهو بمثابة العصب في الجسم، فهذا الذي يحرك الأمة ويزيد فاعليتها في الحياة، وهو مشعل ينير لها الطريق...

وإقبال لا يقصد معرفة التاريخ لذاته، وإنما لكي يوصله بالحاضر والمستقبل، ويستفيد من تجاربه وأحداثه.. ولقد صدق إقبال، فإن الأمة الإسلامية كلما أصابها من العدو مصيبة ما؛ استعادت بطولات تاريخها، وأوقدت النار في قلوبها، وزادت حميتها، وهبت مجاهدة الأعداء بالمال والنفس.

---

(١) المُنَّة: القوة، يقال: ليس لقلبه مُنَّة، الجمع: مُنَن.

(٢) راز الإنسان الشيء: اختبره.

(٣) المرجع السابق – ص ١٣٢ – ١٣٣، تزبر: تكتب.

obeikandl.com

يقول إقبال في ديوان (رموز بي خودي):

ثوبُنا أيامُنا في الزمنِ ... وخياطُ الثوب حفظُ السَّنَنِ [١]

ما ترى يا غرُّ تاريخَ البشرْ ... قصةٌ، أسطورةٌ، لهوٌ سمرْ

إنه أعصابُ جسمِ الأمةِ ... إنه في الروحِ مثلُ الشُّعلةِ

خامدُ الشعلةِ، فيه يشعلُ ... يومُه للأمسِ فيهِ موئلُ

عينهُ تبصرُ ما قد عبرا ... وترى الماضيَ حيّاً مُحضَرا

فاذكرِ التاريخَ واستحكمْ بهِ ... عشْ بأنفاسٍ مضتْ، في طبِّهِ

أحكمَنْ وصلةَ يومٍ بغدِ ... والحياةَ امضِ بها طوعَ اليدِ

وقُدِ الأيامَ قسراً بمهارْ ... أو فعِشْ أعمى بليلٍ ونهارْ[٢]

أما إذا نسيت الأمة تاريخها، فقد عفا عليها الزمن، وسقطت في مهاوي النسيان.

أمةٌ قدْ نسيَتْ تاريخها ... ينسخُ الدهرُ غداً آيتَها[٣]

ح – حفظ الأمومة واحترامها:

المرأة فضلاً عن كونها مزرعة لإنتاج الحياة وبقاء النوع الإنساني فإنها تدفع إلى الإقدام والعمل، وتهدي الرجل وتلهمه، فهي صانعة

(١) الخياط: الإبرة.

(٢) المهار: الزمام، أو العنان – المرجع السابق – ص ١٣٤.

(٣) المرجع السابق – ص ١٣٤.

obeikandl.com

التاريخ ومربية الأجيال، وقد قرنها الرسول ﷺ بالطيب والصلاة حينما قال: «حُبب إليَّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة». وجعلت الجنة تحت أقدامها، فلا يدخلها أحد حتى يطأطئ الرأس احتراماً لها وتقديراً لشأنها. قال الرسول ﷺ: «الجنة تحت أقدام الأمهات». وأي مسلم لا يقدرها، ولا يحفظ مكانتها فقد جهل أحكام القرآن. ويجمع إقبال هذه المعاني العظيمة في ديوانه (رموز بي خودي) فيقول:

نغماتُ المرءِ عزفُ المرأةِ ... هو مِن محنتِها في عزَّةِ

أنجبَ الذكرانَ رباتُ الحِجالْ ... إنثوبَ العشقِ من نسجِ الجَمالْ[1]

عاشقُ الحقِّ نما في حجرها ... ذلك اللحنُ حَواه صدرُها

الذي قد بهرَ الكونَ سناهْ ... قرَنَ الطِّيبَ إليها والصلاةْ

جهلَ القرآنَ جهلا مسلمُ ... قد رآها أَمَةً لا تعظُمُ

قالَ خيرُ الخلق- وهو الحُجَّةُ: ... تحت رجلِ الأمهاتِ الجنةُ[2]

ويحذر إقبال النساء المسلمات من الدعوات الغربية الضالة التي تنادي بحرية المرأة، والتي تهدف إلى انحرافها وبعدها عن أمومتها وصلاحها، ومن ثم إفساد الأمة الإسلامية وتقطيع أوصالها.

يقول إقبال:

---

(١) المرأة ملهمة للرجل إلى الشجاعة والعمل.

(٢) المرجع السابق – ص ١٣٥ – ١٣٦.

obeikandl.com

شـعَّ نـورُ الـغـربِ في فكرتِها ... وتــرى الــثــورةَ في مقلتِها
قـطَّـعَـتْ أوصــالَ هـذي الأمــةِ ... حين طاشتْ عينُها بالفطرةِ
إن حـريَّـتَـها أصــلُ الـبــلاءْ ... إن حريَّتَها فَـقْـدُ الحيــاءْ[1]
ليلُها مـا ضــاءَ فيه نجمُها ... لم يطقْ أعباءَ أمٍّ[2] علمُها[3]

وهكـذا يعد إقبال حفظ الأمومة ورعايتهـا حفظاً للمجتمع الذي تترقى فيه الذات حتى تصـل إلى أوج الكمال، وتسـتحق الوصـول إلى رتبة خليفة الله في الأرض.

ويخاطـب إقبـال المرأة المسـلمة في قصـيدة أخرى، يبين لهـا وظيفتها التربويـة العظيمـة في الأمة، فهي تنشـئ الأبنـاء على التوحيد والصـلاح والخير، فهي أسـاس قوة الأمة ووحدتها وصـلاح أبنائها، وينصـحها بأن تسـير على نهـج السـلف الصـالح، وأن فاطمة الزهـراء خير أسـوة لها. ويحذرها من فتنة العصـر الحاضـر الـذي فيه هلاكهـا إن اتبعت دعاوى المضللين إلى الحرية والانحلال.

يقول إقبال:

بـكِ يخضرُّ غـراسُ الـوحـدَةِ ... بـكِ ينـمو رأسُـ مـالِ الملَّـةِ
لا تسيري غير سَـيْرِ السلفِ ... لا تـبـالي بـجُـدًى أو تلَـفِ

(١) يقصد إقبال الحرية الزائفة للمرأة التي ينادي بها الغرب وتحللها من الأخلاق.

(٢) لم يضئ في ليلها نجم: لم يولد لها ولد.

(٣) المرجع السابق – ص ١٢٦ – ١٢٧.

احـذري فتنةَ عصرٍ مهلِكٍ وإلى صـدركِ ضُـمِّـي وُلْـدَكِ
فـيكِ تسـمو للمعـالي فطـرةٌ فاتبعي الزهراء، نعمتْ أسوةُ[١]

هذه هي أسـس المجتمع الفاضل وأركانه الذي تحتاجه الذات في ترقيها إلى الكمال لتصل بالفرد إلى الإنسان الكامل الذي تغنى به إقبال في شعره، ووصـفه بأنه نائب الحق، أو خليفة الله في الأرض... وهو الإنسـان المسـلم الحق الذي يبحث عنه دائماً العلماء والمربون والمصلحون على مر التاريخ، ويسـعون إلى إيجاده لأنه هو أسـاس المجتمع الصـالح، وباني الحضـارة، ورافع راية الحق والمساواة بين أمم الأرض كلها.

هذا الإنسـان الذي بدأ البحث عنه بقصـيدة لجلال الدين الرومي في بدايـة ديوان إقبال (أسـرار خودي)[٢] نجده ينشـأ ويتربى في مجتمع بيَّنَ إقبـال أسسـه وأركانه في ديوانـه الثاني (رموز بي خـودي) الذي يعد بحق تتمة لديوانه الأول. وهكذا نجد فلسـفة إقبال الذاتية حلقات متصلة يكمل بعضها بعضاً، من دون تناقض أو تنافر.

وهذا يدل على وضـوح الفكر واستنارته لدى شاعرنا العظيم، والتزامه الصـادق بدينه وأمته الإسـلامية، والتـي طالما تغنى بهـا، وتمنى يقظتها وصحوتها بعد نومها الطويل لتعيد مجدها التليد وعزها المجيد.

وبوجود هذه الأمة اليقظة المتحررة من نير العبودية، يجد المسـلم داره

---

(١) المرجع السابق – ص ١٣٩ – ١٤٠.

(٢) مطلع الأبيات:

رأيت الشيخ بالمصباح يسعى له في كل ناحية مجالُ
يقول مللت أنعاماً وبُهْمـــا وإنساناً أريد فهل ينالُ

وسـكنه ومقر طمأنينتـه، ووطنه الحقيقـي، ويعتقد إقبـال أن الحجاز هو الوطـن الروحي للمسـلم، الذي يهفـو إليه قلبه، ويحن إليـه روحه.. لذلك نجـده يدعـو الله في آخر ديوانه (رمـوز بي خودي) أن يمـوت في الحجاز، وبقي يكرر هذا الرجاء ثلاثين سـنة من تاريخ نشـره للديوان عام ١٩٠٨م، وحتى وفاته عام ١٩٣٨م رَحِمَهُ اللهُ.

يـا رحيـماً بـكَ للناسِ مفـازْ ... كلُّ ما أبغيه موتي في الحجـازْ
«دارُ حبّـي ومليكي والسكنْ ... أيها العشاقُ! ذا نِعْمَ الوطنْ»[١]
أيها الدهرُ انظرَنْ هذا السلامْ ... قدرأيتَالبدءَفانظرْماالختامْ[٢]

ثالثاً: الإسلام دين ودولة:

يجاهـد إقبال السياسـة اللادينية، أو كما يعبر عنهـا حديثاً بالعَلْمانية لأنها خسة في الخلق، وموت في الضمير، وابتعاد عن الدين، وهي من افتراء إبليس، يقول إقبال في ديوان ضرب الكليم:

ما الحقُّ خافٍ عن فؤادي سرُّهُ ... فلقدْ حباني اللهُ قلباً مبصِراً
فسياسةُ (اللادينِ) عندي خِسَّةٌ ... ماتَ الضميرُ بها وإبليسُ افْترى
لما قلى حكمُ الفرنجِ كنيسةً ... ساسوا كشيطانٍ بلا قيدٍ جرى
شرِهَتْ لأموالِ العبادِ كنيسةٌ ... فإذاالخميسُسفيرُهابينالورى[٣]

(١) هذا البيت مقتبس من جلال الدين الرومي كما يرى الدكتور عبد الوهاب عزام معرب الديوان شعراً، والسكن هنا: ما يسكن إليه الإنسان ويطمئن.

(٢) الأسرار والرموز – ص ١٥٣، ١٥٤.

(٣) الخميس: الجيش، والمعنى أنها شنت الحروب الصليبية، ديوان ضرب الكليم، تعريب عزام – ص ١٠٩.

obeikandi.com

وفي البيت الأخير من هذه الأبيات يبين إقبال فساد رجال الكنيسة حيث أصبح همهم جمع الأموال، لا هداية الناس، فضلاً عن حربها للعلم والعلماء.. ولا ننسى محاكم التفتيش التي نصبها رجال الكنيسة لكل من يعارضها من رجال العلم.. وهنا حدث الفصام النكد بين الدين والسياسة، وخاصة أن أوروبا كانت تمر بمرحلة النهضة العلمية والسياسية، فثارت على سلطان الكنيسة.. وعزل الدين النصراني عن الحياة، ونادت بالسياسة اللادينية، أو ما أطلق عليها في المجتمع العربي وغيره بالعلمانية التي تنادي بإبعاد الدين عن الحياة.

يقول إقبال في ديوان بال جبريل (جناح جبريل): كانت الخصومة بين السلطنة والرهبانية، لأن السلطنة تعني ارتفاع الهامة، بينما الرهبانية تعني خفض الجبين.

لقد تخلصت السياسة من تعقب الدين لها، ورقابته عليها، إن رجال الكنيسة لم يستطيعوا أن يعملوا شيئاً منذ أن انفصلت الدولة عن الدين وأقيمت سلطنة الحرص ووزارة الجشع.[١]

فلما انفصل الدين عن الدولة جاءت الشهوة وشاع الهوى، وساد قانون الغاب، هذا الانفصال شؤم على الدولة والدين، وهو يدل على ضعف بصر هذه الحضارة وفساد ذوقها[٢]، أما الوضع في العالم الإسلامي فلم يكن فيه هذا الصراع بين الدين والعلم موجوداً.. لذلك لا يمكن أن نقلد الغرب في إبعاد الدين عن الحياة، وخاصة أن الإسلام هو أساس أمة العرب، والإسلام جعل منهم دولة ووجوداً بعد أن كانوا قبائل متناحرة، وكذلك بنى الإسلام

(١) الأعلام الخمسة للشعر الإسلامي (مرجع سابق) – ص ٥٨.

(٢) روائع إقبال للندوي – ص ٢٠١.

openkandil.com

أعظم حضارة تقوم على العلم والمعرفة.. وما المنهج الاستقرائي الذي اقتبسه الغرب، وكان أساس التقدم العلمي الحديث في العالم الغربي، إلا من إنتاج العالم الإسلامي كما رأينا في غير هذا المقام من البحث، إلا أن الغرب أشاع في العالم دعوى العَلْمانية، وتلقفها تلاميذ الغرب في العالم العربي خاصة والإسلامي عامة، ووجدوا فيها بغيتهم بإقصاء الدين عن الحياة والحكم، فقامت أحزاب وجماعات تنادي بالعَلْمانية والقومية وغيرها من الدعوات اللادينية.. ولا يدرون أن الغرب الصليبي هدفه تحطيم الإسلام لأن شبح الحروب الصليبية ما زال يلاحقه[1]، ويطلب منه الانتقام من الإسلام والمسلمين الذين طردوهم من بيت المقدس بقيادة صلاح الدين الأيوبي.

رابعاً: الدعوة إلى الجهاد لتحرير البلاد الإسلامية:

الجهاد من صميم فلسفة إقبال الذاتية، وعنصر من عناصرها للترقي بالذات في الحياة، لتصل إلى الكمال، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت:٦٩)

فلا يمكن أن تحيا الذات بدون كدح وجهاد، يقول إقبال:

إذا لم تصب في الحياة النظرْ ... فليكسر زجاجك كف الحجرْ

كفاحٌ شديدٌ وضربٌ سديدْ ... فلا تَرْجُ في الحربِ عزفَ الوتَرْ[2]

ويعد إقبال الجهاد من عوامل يقظة الذات، وركائز الصحوة بعد النوم الطويل للمسلمين، يقول في ديوانه ضرب الكليم:

---

(١) ارجع إلى كتاب (الإسلام على مفترق الطرق) لمحمد أسد، (فصل شبح الحروب الصليبية). (مرجع سابق).

(٢) ضرب الكليم – ص ٣.

يقظةٌ الـذاتِ لا أراهـا بديرِ ... لا ولا تُجْتلى لـدى المحـرابِ

إن روحَ الشعوبِ في الشرقِ غافٍ ... من سمومِ الترياقِ رهنٌ غيابِ[١]

إن تضقْ بالجهادِ في الأرضِ ذرعاً ... فحرامٌ مسراكَ فوقَ السحابِ[٢]

ليسَ من خيفةِ الممـاتِ نجـاةٌ ... إن تَرَ الذاتَ هيكلاً من ترابِ[٣]

ليسَ يخفى صروفُه الدهرَ لكنْ ... لـكَ قلـبٌ ونـاظـرٌ في حجـابِ

قد مُنِحْتُ الهشيمَ في آسيا إذ ... إن ناري حديدةٌ في التهابِ[٤]

ومن هنا كان الجهاد الإسـلامي لإحقاق الحق، وإزهاق الباطل، وسيلة لبناء الأمة الإسـلامية، وصـون كرامتهـا وعزتها، ونشـر الدعوة في جميع أصقاع الأرض.. وآيات الجهاد في القرآن كثيرة، نختار بعضها:

قـال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ (التوبة:٧٣).

وقـال تعالـى: ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ (النساء:٩٥).

---

(١) الترياق: الأفيون.

(٢) أي إن لم يستطع الإنسان المجاهدة على هذه الأرض فاشتغاله بالفلك وما وراءه حرام.

(٣) يرى إقبال: أن الحياة الخالدة بقوة الذات، فمن حسب ذاته تراباً كالجسم لم يخلص من خشبة الموت.

(٤) أي: ناري شديدة الالتهاب فأنا قادر على إحراق هشيم آسيا أي إزالة مفاسدها وإعدادها للحياة. انظر: هامش ص ٥ من ديوان ضرب الكليم، تعريب عزام.

obeikandl.com

وقال تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ ﴾ (الحج:٧٨).

وإقبال في قصيدتيه الطويلتين الرائعتين (الشكوى، وجواب الشكوى) يشيد بالجهاد ويفخر بالأمة الإسلامية، أمة الجهاد، ففي قصيدته شكوى يظهر بطولة المسلمين وجهاده لرفع راية التوحيد.

يقول إقبال:

من ذا الذي رفعَ السيوفَ ليرفعَ اسـ ... مكَ فوقَ هاماتِ النجومِ منارا
كنا جبالاً في الجبالِ وربما ... سرنا على موجِ البحارِ بحارا
بمعابدِ الإفرنجِ كان أذاننا ... قبلَ الكتائبِ يفتحُ الأمصارا
لم تنس أفريقية ولا صحراؤها ... سجداتنا والأرضُ تقذفُ نارا
وكأن ظلَّ السيف ظلُّ حديقةٍ ... خضراءَ تنبتُ حولَنا الأزهارا[1]

وفي قصيدة جواب الشكوى يرى إقبال أن حياة الأمة في الجهاد وموتها في ترك الجهاد، يقول:

جهادُ المؤمنين لهم حياةٌ ... ألا إن الحياةَ هي الجهادُ
وخوفُ الموتِ للأحياءِ قبرٌ ... وخوفُ اللهِ للأحرارِ زادُ[2]

ويرى إقبال أن إنقاذ الأمة الإسلامية لا يكون إلا بالجهاد، لأنها

(١) الأعلام الخمسة للشعر الإسلامي (مرجع سابق) – ص ١١٢.

(٢) المرجع السابق – ص ١٢٧.

obeikandl.com

بالجهاد عزت وسمت في سماء المجد والسؤدد.. يقول إقبال في قصيدة جواب الشكوى:

هي النارُ الجديدةُ ليس يُلْقى ... لها حطبٌ سوى المجدِ القديمِ
خذوا إيمان إبراهيمَ تنبُتْ ... لكمْ في النارِ روضاتُ النعيمِ
ويزكو من دم الشهداءِ وَرْدٌ ... سنِيُّ العطر قُدْسيُّ النسيمِ [١]

وصدق إقبال، فقد جاء في الأثر عن مالك بن أنس رحمه الله:

«لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».

وعندما قامت طائفة في الهند تنكر الجهاد، وتقول: إن هذا عصر الدعوة بالقلم لا القتال بالسيف، وتدعو المسلمين إلى السلم، رد عليهم إقبال:

بأنهم يَدَعون المسلمين أهل الحق عزلاً من السلاح، ويتركون الأمم المدججة في السلاح، تشن الحرب بين الحين والآخر لنصرة الباطل، يقول إقبال:

الشيخُ أفتى أنهُ عصرُ القلمْ ... ما السيفُ فيهِ حاكمٌ بينَ الأممْ
أما درى الشيخ بأنَّ وعظَهُ ... في مسجدٍ قد صارَ من لغو الكلمْ
فما ترى السلاحَ كفُّ مسلمٍ ... بل قلبُهُ من لذةِ الموتِ حُرِمْ
من قلبهِ يهابُ موتَ كافرٍ ... فكيفَ ميتةَ الشهيدِ يغتنمْ [٢]

(١) المرجع السابق – ص ١٢٩.

(٢) موت الكافر: أي الموت بدون جهاد.

obeikandl.com

فعلّمَنْ تركَ الجهادِ طاغياً ... من كفهِ يسيلُ في العالمِ دَمْ
أما ترى الغربَ بدا مدجَّجاً ... ليحفظَ الباطلَ في عزٍّ عمِمْ
يا مفتياً على الكنيسِ مشفِقاً ... قد حارَ في أحكامِه أولو الفَهَمْ
الحربُ في المشرقِ شرٌّ داهمٌ ... الحربُ في المغربِ شرٌّ لا جرَمْ[1]

خامساً: الدعوة إلى الوحدة الإسلامية:

الدعوة إلى الوحدة أساس قوة المجتمع، وقوة الأمة. والتفرق ضعف وموت وفناء للأمم والشعوب.. وما تفرقت أمة أشتاتاً إلا أسرعت إلى الفناء.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (الأنفال).

لهذا كان شعار الاستعمار البريطاني في مستعمراته القديمة (فرق تسد) ومن هذا المنطلق الإسلامي، حارب محمد إقبال الدعوات المفرقة للأمة مثل: القومية والوطنية والعرقية والتفاخر بالأنساب والأجناس.. إلخ وعد ذلك من العوامل المضعفة للذات.

وقد تطرق إقبال إلى موضوع مقومات الأمة وأسسها في كثير من دواوينه وخطبه السياسية، ولم يعدَّ القومية والوطنية من مقومات الأمة بل عدهما من عوامل تفرق الأمة.

ويرى إقبال أن العقيدة هي أساس تكون الأمم، وبناء الحضارة.

---

(١) ديوان ضرب الكليم، تعريب عزام – ص ١٧ – ١٨.

obeikandl.com

يقول إقبال في النشيد الإسلامي الذي أصبح على كل لسان في العالم العربي يعلن فيه الوحدة الإسلامية العالمية، المبنية على العقيدة لا على الجنس واللون والأرض:

الصينُ لنا والعُرْبُ لنا والهندُ لنا والكلُّ لنا
أضحى الإسلامُ لنا ديناً وجميعُ الكونِ لنا وطناً
توحيدُ اللهِ لنا نورٌ أعدَدْنا الروحَ له سكناً
علمُ الإسلامِ على الأيا مِ شعارُ المجدِ لملّتِنا[1]

ويقول في خطبته الشهيرة في حفلة الرابطة الإسلامية عام ١٩٣٠م، وأعلن فيها دعوته إلى هند إسلامية (باكستان)، وإلى التمسك بالإسلام الذي حفظ للمسلمين وحدتهم وقوتهم في أحلك الأوقات، يقول إقبال مخاطباً المسلمين في الهند[2]:

«درس تعلمته من تاريخ الإسلام، أي والله درس واحد، ولكنه كل شيء فيما يتعلمه الإنسان، هو أنه في أحرج الأوقات وأعقد المصائب والمشكلات كان الإسلام هو الذي يحفظ على المسلمين حياتهم، ولم يكن المسلمون هم الذين حفظوا الإسلام».

ويتابع إقبال خطبته فيقول:

---

(١) المرجع السابق – ص ٥٥.

(٢) ارجع إلى فلسفة إقبال للأعظمي والشعلان – ص٢٧، الخطبة التي ألقاها العلامة إقبال في الحفلة السنوية للرابطة الإسلامية.

obeikandi.com

«فلو أنكم أيها المسلمون ركزتم جهودكم وأنظاركم، وولّيتم وجوهكم شطر الإسلام، وجعلتموه رائدكم وقائدكم، واقتبستم مشاعركم واتجاهاتكم من عناصره التي تهب القوة والحياة لتجمعت قواكم المتفرقة، وتوحدت مواهبكم المنتشرة من جديد، ولوضعتم لوجودكم التأمين والضمان الوثيق ضد عوامل الدمار والهلاك».

ويتصل بهذه الخطبة خطبته في المؤتمر الإسلامي حينما تولى رئاسة اجتماعه السنوي سنة ١٩٣٢م، قال فيها:

«أنا لا أقبل الوطنية كما تعرفها أوروبا، وليس إنكاري إياها خوفاً من أن تضر بمصالح المسلمين في الهند، ولكن أنكرها لأني أرى فيها بذور المادية الملحدة وهي عندي أعظم خطر على الإنسانية في عصرنا.

لا ريب أن الوطنية لها مكانها وأثرها في حياة الإنسان الأخلاقية ولكن العبرة في الحقيقة بإيمان الإنسان وثقافته وسننه التاريخية. هذه هي في رأيي الأشياء التي تستحق أن يعيش لها الإنسان، ويموت من أجلها، لا بقعة الأرض التي اتصلت بها روح الإنسان اتفاقاً».[1]

سادساً: محاربة الدعوات الهدامة مثل القاديانية:

ظهرت الديانة القاديانية في آخر القرن التاسع عشر الميلادي في الهند بعد استقرار الحكم الإنكليزي، وهي ثورة على النبوة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام، وعلى الإسلام، ومؤامرة دينية وسياسية، ما وجد لها نظير في الخطر والضرر على الإسلام.

---

(١) محمد إقبال سيرته وفلسفته وشعره.. لعزام – ص ٥٤ – ٥٥.

وتبنتها الحكومة الإنكليزية واحتضنتها؛ لدعوتها إلى إلغاء الجهاد، والطاعة للمستعمر الإنكليزي، وساعدتها العوامل الاجتماعية والسياسية والفكرية الكثيرة التي توافرت في عصر ظهورها، فانتشرت على بعدها من الإسلام، وأصبحت طائفة كبيرة يحسب لها حساب.

وهبَّ علماء الإسلام لمحاربة هذه الدعوة الهدامة، باللسان والقلم، وأطبق العلماء على تضليل القاديانيين وتكفيرهم، وأصبح ذلك كلمة إجماع لم يشذ منها إلا شاذ، وأفتوا وألفوا في ذلك مؤلفات كثيرة، وأصدرت محكمة بهاوالبور سنة ١٩٣٥م بعد مناقشة طويلة دامت عامين كاملين، واشترك فيها كبار علماء أهل السنة وكبار علماء القاديانية، حكمها بكفر القاديانية، وعدم حلّ نكاح المسلمة بالقادياني. وكتب القاضي الفاضل محمد أكبر خان حيثيات الحكم في تفصيل واستدلال، وحكم بارتداد القادياني، وقد استعرض دلائل الفريقين، وناقش نحو مئة وخمسين صفحة أصبح من المصادر العلمية والمراجع القضائية في هذا الموضوع.[١]

محمد إقبال كان من أول المحاربين لأفكار القاديانية، وهو أول من دعا إلى فصل القاديانيين واعتبارهم أقلية غير مسلمة.[٢]

وكتب إقبال مقالات بعنوان: القاديانية والمسلمون. شرح فيها أن القاديانيين ليسوا مسلمين، فلابد للحكومة من أن تعترف بكيانهم أقلية غير مسلمة.

---

(١) القادياني والقاديانية لأبي الحسن الندوي ص ٧-١٠، راجع تفصيله (مقدمة بهاوالبور طبع في عام ١٩٣٥م في لاهور باللغة الأوردية).

(٢) المرجع السابق – ص ١٠.

obeikandl.com

سابعاً: فتح باب الاجتهاد:

جعل إقبال بحث النظام التشريعي الإسلامي وتجديده في الوقت الحاضر جزءاً من بحوثه في تجديد التفكير الديني في الإسلام، ومن أسس اليقظة الإسلامية الحديثة. إذ إن متطلبات الحياة العصرية وما طرأت فيها من أمور حديثة تتطلب إجراءات فقهية جديدة ملائمة.

ويؤكد إقبال في بداية محاضرته «مبدأ الحركة في بناء الإسلام»[١] أن الإسلام حركة ثقافية، وأن أساس الحركة في بناء الإسلام هو الاجتهاد[٢]، وقد بدأ الاجتهاد في عهد الرسول ﷺ مبدأ تشريعياً.[٣] وامتد بعد ذلك في العهود الإسلامية التابعة..

ويدلل إقبال على قابلية الشريعة للتجديد بإبداء ملاحظات مهمة هي:

---

(١) انظر: تجديد التفكير الديني في الإسلام – محمد إقبال (مرجع سابق) – ص ١٦٨.

(٢) الاجتهاد لغة بذل الجهد أو الوسع، وهو في اصطلاح الفقهاء أن يبذل الفقيه بالشريعة الإسلامية كل جهده في استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة التفصيلية، وينصرف استنباط الأحكام، إما إلى إنشائها وإما إلى تطبيقها، وشروط الاجتهاد أن يكون المجتهد عالماً بمعاني الألفاظ وعوارضها من التخصيص والنسخ، عالماً بأصول الفقه، عالماً بآيات الأحكام في القرآن، وبأحاديثها في السنة، ومواضع الإجماع، عالماًبالتراث الفقهي، ومسالك أدلته ومقاصده، مع توافر الإخلاص وسلامة الفهم ومتانة الاعتقاد.

(٣) انظر تنقيح الفصول في الأصول للإمام القرافي – ص ٩٠، روى ابن عبد البر عن معاذ أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال له: كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بما في كتاب الله. قال: فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ. قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله؟ قال: أجتهد رأيي ولا آلو. قال: فضرب بيده صدري، وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول الله (انظر جامع بيان العلم وفضله – ص ١٣٢).

obeikandi.com

أولاً: ينبغي أن نذكر أنه منذ ظهور الإسلام إلى قيام الدولة العباسية تقريباً لم يكن قد دُوِّن من شرائع الإسلام سوى القرآن.

ثانياً: مما هو جدير بالملاحظة أنه منذ منتصف القرن الأول إلى أوائل القرن الرابع الهجري ظهر ما لا يقل عن تسع عشرة مدرسة من مدارس الفقه والرأي الشرعي في الإسلام، وهذه الحقيقة وحدها كافية في بيان مقدار ما بذل فقهاؤها المتقدمون من جهد موصول لمواجهة ما تستلزمه حضارة نامية، وكان لابد لهؤلاء الأصوليين مع امتداد الفتح، من أن يصطنعوا رأياً في الأمور أكثر رحابة، وأن يدرسوا الظروف المحلية والعادات للشعوب الجديدة التي دخلت في الإسلام.

ثالثاً: عندما ندرس أصول الفقه الإسلامي الأربعة المتفق عليها (القرآن، والحديث، والإجماع، والقياس) وما ثار حولها من خلاف فإن ذلك الجمود المزعوم عن مذاهبنا المعترف بها يتبخر، ويبدو للعيان إمكان حدوث تطور جديد.[1]

ويرى إقبال أن الإجماع قد يكون أهم الأفكار التشريعية في الإسلام، على أنه من الغريب أن هذه الفكرة المهمة ظلت تقريباً مجرد فكرة لا غير، وقلما اتخذت شكل نظام دائر في أي بلد من بلاد الإسلام. في حين أن الخلاف اشتد بشأنها في صدر الإسلام وأثارت الكثير من الجدل العلمي.

وبعد: فهذه هي مرتكزات الصحوة الإسلامية التي نادى بها إقبال وعمل من أجلها، وجاهد بلسانه وقلمه في سبيل وجودها في المجتمع الإسلامي.

(١) تجديد التفكير الديني في الإسلام لإقبال – ص ١٨٩ – ١٩٠.

obeikandl.com